بَوْحُ النَّبَضَات

يوميات طبيب في أروقة المستشفى

د. أيمن أسعد عبده

العبيكان
Obeikan

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عبده، أيمن

بوح النبضات./ أيمن عبده. - الرياض، ١٤٢٩هـ

٢٣٠ص؛ ١٤ × ١٢سم

ردمك: ٤-٣٩٩-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- القصص القصيرة العربية - السعودية أ- العنوان

ديوي ٨١٣،٠١٩٥٣١ ١٤٢٨/ ٣٥٧

رقم الإيداع: ١٤٢٩/ ٣٥٧

ردمك: ٤-٣٩٩-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

الإهـداء

إلى أجمل شيء في حياتي ....

أسرتي الصغيرة ....

زوجتي الغالية ... وأطفالي الأحبة ...

حتى تعرفوا أين كنت ..؟

وكيف تأخرت ..؟

ولماذا عُدتُ شارد البال ...

أيمن

المحتويات

الإهداء 5
التقديم..... 9
لمن هذه القصص؟..... 13
لماذا هذه القصص؟..... 19
شيك من غير رصيد..... 33
براكين القلق..... 55
بين يأس..ورجاء..وظنون..... 79
عمي..... 89
بقايا زجاج..... 101
وإذا حصل نزيف؟..... 111
أنين الجرح..... 125
من يدفع الثمن؟..... 149
أرجوك..لا تذبحه.. 161
ملاحقة السراب..... 175
أنا لا أشرب..... 185
بعد دقائق..ستنام..... 203
خاتمة..... 229

تقديم الأستاذ الدكتور
فالح زيد الفالح

يحـوي هذا الكتاب اثني عشْـرة قصةً من واقـع الممارسة الطبية في العيادة والتنويم، كمـا يرويها الدكتور أيمن عبده، الذي نجح في صياغة هذه القصص بأسلـوب قصصي شيق ورشيق كما هو ممتع وسهل، وذلك يعكس موهبته الواضحة في الكتابة إلى جانب عمله المميز كطبيب.

إن هـذه القصـص تعكـس بتفاصيلها المختلفـة العلاقة بـين الطبيب والمريض، وهي مـن جهة أخرى تعكـس العلاقة بين ثقافـة وعادات وقيم المجتمـع السعودي، وبين نظامـه الصحي الحديث. من ناحية أخرى تظهر هـذه القصـص إشكاليـة النَقْلـة النوعية الكبـيرة التي يمر بهـا الطبيب السعـودي الذي قُدر لـه أن يمارس الطب فترةً ليسـت قصيرةً في المجتمع الغربـي سـواء كان ذلـك في أوروبـا أو في كندا (مثل الدكتـور أيمن وجمع غفير من زملائه في العقدين الأخيرين) إذا عاد لممارسة مهنته كطبيب في المملكة العربية السعودية. ثقافة المريض، نظرته للمرض، علاقته بالطبيب، ومن ثم علاقتُـه بالنظام الصحي السائد هناك، تطور كل ذلك في الغرب نظراً لقدم تلك الأنظمـة الصحيّة، وتبعاً لذلك تكونت بعض الثوابت حول دور المريض ومالَه مـن حقوق، وما عليه من واجبـات، ودور الطبيب ودور المؤسسة الصحيـة، ودور المؤسسات المساندة الأخـرى. وكانت النتيجة أن زادت ثقة المريض بقول الطبيب.

وإذا رجعنا إلى النظام الصحي السعودي السائد فإن قصص هؤلاء المرضى، وردود أفعالهم، ومعاناتهم، تُظهر بوضوح أن نظامنا الصحي على الرغم من تطوره الكبير على مدى الخمسين عاماً الماضية (وهذا عمره الزمني) فإنّه ما زال يعاني من قصور وفجوات في عناصره المختلفة، فلا يزال هذا النظام مجزءاً ولا يزال الطبيب هو محك العملية الطبية، وعليه تقع المسؤولية كاملة بعكس الأنظمة الصحية المتقدمة، حيث تقع المسؤولية على ما يسمى الفريق الصحي، بدءاً بالإدارة ومروراً بالطبيب ومعه جميع الممارسين الصحيين، وهم جميعاً يشكلون سلسلةً متماسكة متكاملة كلٌ يؤدي دوره المحدد له.

تعكس هذه القصص قضية أخرى هي مهارة الاتصال بين الطبيب والمريض، بل وبين المؤسسة الصحية والمرضى، وقد نجح الدكتور أيمن في تجسيد هذه الإشكالية الفجوة الكبيرة التي يعاني منها النظام الصحي السعودي بهذا الخصوص ممثلا بالمؤسسة الصحية العلاجية. ويظهر لي، أنّ بعضَ المسؤولين في القطاعات الصحية رغم حُسْنَ نيّاتهم واجتهادهم، ونتيجةً لغرقهم الكبير وانشغالهم في مشاكل التمويل والإدارة، وتقديم الخدمة اليومية للكم الكبير من المرضى الذي يفوق قدرة مؤسساتهم، هم لا يضعون وزنا كبيرا لمهارة الاتصال بين الطبيب ومريضه، وبين المؤسسة ومراجعيها، وإنّني أجزمُ بأنَّ هذا ما زال بعيداً عن اهتمامات مؤسساتنا الصحية وربما يعتبر بعضهم هذا من الترف. ويرجع هذا بالطبع إلى أن نظامنا الصحي الحالي بأسلوب إدارته وتمويله ليس مهتماً بإرضاء المريض مادام هذا المريض يتلقى العلاج دون مقابل، وهذا مخالف للأنظمة الصحية المتقدمة سواءً في أمريكا الشمالية أو أوروبا أو اليابان حيث يشارك المريض طبيبه مشاركة فعلية في تمويل الخدمات، إما عن طريق

الضرائب التي تؤخذ منه أو عن طريق مشاركته في تغطية وثيقة التأمين، بحسب حالته المالية والمرضية. كل هذا يثبت في النهاية إلى أن هذا المريض أيضا يشارك، هو أو من يمثله، في محاسبة المؤسسات الصحية.

ترك الدكتور أيمن الحرية للقارئ سواء كان طبيباً أو مريضاً ليفكر في أسلوب ترميم هذه الفجوة في ثقافة الاتصال بين الطبيب المعالج والمريض، وكيفية التغلب على تبعات هذه الفجوة. لكني أتمنى أن تكون هذه القصص حافزا للجميع (سواءٌ الأطباء والمرضى أو المسؤولون عن إدارة المؤسسات الصحية وكذا المهتمون بتطوير النظام الصحي) على العمل الدؤوب لسدّ هذه الفجوات والثقوب في هذا النظام، وإعطاء مهارة الاتصال بين الأطباء ومرضاهم اهتماما كبيرا. ومن ناحية أخرى، فإني أعتقد أن هذا الكتاب يمثل وثيقةً علمية صادقة عن ثقافة المريض السعودي، ونظرته للمرض، ودور المريض فى الوقت الحاضر، لعلَّ الباحثين في المستقبل يتخذونها حالةً للمقارنة ويقيّمون مدى تطورها وتغيرها على مر السنين.

أما الدكتور أيمن، وما أعرفه عن موهبته الثقافية وقدرته الكتابية، فأنا متأكد أنه سيتبع هذه القصص بقصص أو مشاريع كتابية أخرى. وسأستمع بما سيكتب كما استمتعت بقراءة قصص هذا الكتاب.

الأستاذ الدكتور/ فالح زيد الفالح
- أستاذ أمراض الكبد بجامعة الملك سعود سابقاً
- عميد كلية الطب وعضو مجلس الشورى سابقاً
- استشاري أمراض الكبد

لمن هذه القصص؟

هذه القصص إلى اثنين..

إلى زميليَّ الطبيب والطبيبة وإلى أخي المريض وأختي المريضة..

• • •

إليكما يارفيقا الرحلة

الطبيب والطبيبة..

هذا الحِمل الذي هد ظهرك، أعرفه تماماً لأن على ظهري مثله. الليالي الطويلة التي بِتَّها تتنقل بين أجنحة المستشفى، النوم الذي هرب من بين جفنيك بسبب قلقك على مريض، اللهاث الدائم والجري المستمر الذي لوّن حياتك، الثمن الباهظ الذي دفعته من صحتك وأسرتك وعلاقاتك، الصعوبات الكبيرة التي واجهتك في التواصل مع المرضى والتعامل معهم، كلٌّ ذلك وغيره كثير، أعرفه تماما، لأنني غائص فيه حتى الثمالة معك. ولكنَّ الكثيرين من خارج الوسط الطبي لا يعرفون هذه الهموم ولا يشعرون بهذه التحديات، ولا يتصورون هذه الصعوبات. وربما لو تفهموا هذه الظروف والتحديات لكان تعاملهم معك أقرب إلى الواقعية وأكثر شفافية.

ما رأيك لو أخذنا المجتمع وخاصة المريض في رحلة في عالمنا، مغامرة مثيرة، نشاركه أفكارك وأنت تتحدث إليه في العيادة، ونفتح له نافذة على عالمك وأنت تمر به في الجناح، ونضعه قاب قوسين أو أدنى من التحديات الكثيرة التي تكتنف عملك. لعله يتذوق شيئا من طعم حياة الأطباء.

بالمقابل، لا تقل لي إنك تعرف معاناة المريض وتقدر همومه. لا يعرف إلا من جرب، فهل جربت؟ إذا لم تجرب، فأنت فقط تتخيل وتظن وتتعاطف، ولكنك لا تعرف حقيقةً. أرجولك السلامة ودوام الصحة. المرض ابتلاء حقيقي، والمريض غائص حتى أذنيه في هموم من نوع آخر، هم المرض، وقلق الهم، وخوف الموت، وملل الانتظار، وذل الطلب، وأوجاع الألم، وتضارب آراء الأطباء، وسوء تعامل بعضهم، وهموم أخرى لا يعلمها إلا الله. ولذا فإني أستأذنك ـ أخي الطبيب أختي الطبيبة ـ في أن آخذك في جولة داخل عقل المريض المسكين، لتتحسس بعض معاناته، وتتلمَّس شيئا من همومه وآهاته، سنتجوّل في أنحاء عقله وهو بين يديك في العيادة، وسنمر بفؤاده وهو مستلقٍ على السرير وأنت تمر به في الجناح، وسنعرج على خاطره وهو يسافر من بلد إلى آخر لزيارتك، وسنقترب منه جداً وهو يفقد قريبا أويتلقى خبرا مفزعا أو يشعر بدنو أجله.

أنت تعرف تماماً كما أعرف أنه لا شيء في حياتك المهنية أروع من دعوة مريض لك، تلك الدعوة التي تخرج من القلب، عندما يحس بصدق أنه جاءك مهموماً فخففت عنه، متألما فواسيته، مشتتا فأرشدته، محتارا فدللته. عندما تعطيه حقَّه كاملا فتعالجه كما تحب أن تُعالج أنت، مستخدماً كلَّ ما تعلمت وأحدث ما توصل إليه الطب، مُغَلِّفاً كل ذلك بدماثة خُلق وابتسامة صادقة. احرص على تلك الدعوات، فأنت تعلم كما أعلم أن الطب قد أخذ منا أجمل ما فينا، فلم يُبق لنا وقتاً أو جهدا لكثير من الأعمال الصالحة، ولم يترك لنا فُسْحةً كبيرة للاهتمام الكامل بأسرنا وصحتنا، فلعلَّ دعوات المرضى، وقضاء حوائج الناس تكون سبباً في رفعة درجاتنا ومغفرة خطايانا وانتشار البركة في أسرنا وذريّاتنا وأعمارنا وأوقاتنا وعافيتنا.

في الصبـاح كل يوم، وأنت تستفتح اليوم الجديد، حاول أن تتذكر أنك اليـوم ستمسّ حياة الناس في أعز ما يملكـون، وقبل أن تنام في الليل وأنت تستودع اليوم في رحم الظلام، تأمل كم كربة فرجت وكم سرورا بثثت.

فهل أنت مستعـد للرحلة المثيرة في عقول المرضى؟ وهل أعددت العدة لاستقبال المرضى في عالمنا وحسن ضيافتهم؟

• • •

وقصصي إليك أنت أيضاً أيها المريض..

لا أدعي أني أحس بمعاناتك كاملة لأن لكل مريض معاناة من نوع خاص، ولا أزعم أني أعرف تماماً ما في داخلك لأن ما في داخلك لا يعلمه إلا الله، ولكنـي أحببت أن أذكرك في هذا الكتاب، أن هذا الطبيبَ الجالس أمامك يعبث بأوراق ملفك الطبي، إنسان أيضا، يعتريه ما يعتري الإنسان من نقص وضعف وتقصير. هو يحاول جهده، صدقني، ولَكنّ عليه ضغوطٌ كبيرة قد لا تعلم أنت عنها شيئا، تماما كما تتصور أنت أنه لا يعلم عن معاناتك شيئا. أحببـت في هذا الكتاب أن آخذك رحلةً في عقـل الطبيب لتتحسس همومه وتعاين تحدياته وتشعر بما يشعر به. أردت أن أنبهك إلى أن الطبيب يعاني مـن المرضى كما يعـاني المرضى من الأطباء، وأنَّ مهمـة الطبيب في تفهّم المريض وإيصال المعلومـة الصحيحة إليه والحفاظ على أعلى مستوى من المهنيـة وحُسن التعامـل معه، مهمةٌ صعبـة وشاقة لأسبـابٍ كثيرة، سوف تتطلـع على بعضٍ منها في هذا الكتاب. أردت كذلك أن أذكرك، بأنك أنت العنصر الأهـم في العلاقة العلاجية، فأنت هدفها ومبتغاها، ولذلك، فإن تعرفـك على طريقة تفكير الطبيب وطريقة تعامله معك ستساعدك ـ كما

أرجو ـ في أن تكون زيارتك القادمة لطبيبك أكثر فائدةً وإمتاعا، فهل أنت مستعـد للتعرف على جوانب من حياة الأطبـاء؟ وبالمقابل، حاولت جاهدا أن أبـث في هذه القصص شيئا من معاناتك اليومية، وشيئا مما يختلج في ذهنـك ويعمـل في وجدانك، حتى يتعرف عليها الأطبـاء ويذوقوا شيئا من طعمها، فأرجو أن أكون قد اقتربت منها شيئاً ما...

• • •

وبـين رحلة الطبيب في عـالم المريض ورحلة المريض في دنيا الطبيب، أرجـو أن يلتقيـا في أحد هذيـن المكانين فيمـدان بينهما جسـراً للتواصل ويتعاهدا على علاقة أعمق إنسانية وأكثر تفهما...

أيمن أسعد عبده
- عضو هيئة التدريس بكلية الطب
جامعة الملك سعود
- استشاري أمراض الجهاز الهضمي والكبد
abdoayman@hotmail.com

فقلتم: ربيعٌ موعد الوصلِ بيننا

فهذا ربيعٌ قد مضى وربيع

(البهاء زهير)

لماذا هذه القصص؟

«يادكتور، أرجوك لقد مللنا من أخذ تاريخ المرض والتحدث مع المرضى، نريد الآن أن نتعلم فحص المريض».

في بداية السنة الثالثة من كلية الطب، وبعد أن يقضي الطلبة والطالبات سنتين في دراسة العلوم الطبية المساعدة، يبدؤون بالتعامل مع المرضى لأول مرة، من خلال التدرب على التحدث إلى المرضى ومعاينتهم. وفي العادة، يبدأ تدريب الطلاب أولاً على التحدث مع المريض وأخذ التاريخ المرضي منه، وبعد التمكن من هذه المهارة، يبدأ الطلاب بتعلم طريقة فحص المريض. وكثيراً ما يظن الطلاب أنَّ التحدث إلى المريض أمرٌ سهل لا يحتاج إلى الكثير من المِران، وكثيرا ما يتعجلون تعلّم الفحص، ويتصورون أنه هو الأهم والأصعب. ولا أكاد أجد في الطب أمراً هو أبعد عن الحقيقة من هذا التصور.

يُجمع المتخصصون في التعليم الطبي من خلال خبرتهم العملية ومن خلال الدراسات العلمية الموثقة التي تمت في هذا الموضوع على أن التواصل مع المريض هو أهم عنصر في العملية التطبيبية، وأعنى بالتواصل مع المريض هنا، الوصول إلى درجة من التفاهم الحقيقي التي تسمح للطبيب بأن يستخلص جميع المعلومات المهمة من المريض بشكل فعال وكامل، تسمح له بتشخيص المرض بدقة، ومن ثمّ شرح حالة المريض له وتوضيح وسائل العلاج المتاحة. ويدخل في ذلك مهارات كثيرة أخرى منها: التحدث

مـع المريض في الأمور الشخصية والحرجة وإخبارُ المريض وأهله بالأخبار السيئـة (كتشخيص مرضٍ عُضَال مثلا)، وَشرح بدائـل العلاج للمريض وتوضيـح مميزات وعيوب كل بديلٍ علاجي، وفهـم الإشارات الخفية التي قـد يستعملها المريض في التعبير عن نفسه وعـن مشكلته، والاستفادة من معرفـة المستوى التعليمي والفكـري والمادي للمريض في التعامل معه وذلك بإعطائه القَدر المناسب من المعلومات وبالطريقة المناسبة، وغير ذلك كثير من مهارات التواصل المهمة التي يحتاجها كل طبيب.

وعلى الرغم من أن جميع الأطباء يُجمعون على أهمية هذه المهارات في العمل الطبي، تقف أمامنا حقيقتان كبيرتان تجعلنا بحاجة ماسة إلى طرح هـذه القضية ومعالجتها بشكل جـدي. الحقيقة الأولى هي أنه على الرغم مـن أهمية هذه المهارات في مهنة الطب واعـتراف الجميع بأهميتها فإنها لا تُدرس لطـلاب وطالبات كلية الطب في بلادنا بشـكل مُرضٍ، وكل الذي يمرن عليه الطلاب جزءٌ من هذه المهارات وهي مهارة أخذ التاريخ المرضي للمريض وماعدا ذلك فإن على الطالب أن يتعلمه بخبرته الشخصية التي تتفـاوت بين الطلاب بحسـب اجتهادهم، وبحسب الفرص التي تتاح لهم من معاينة الحالات المناسبة والحصول على التدريب المطلوب. وفي المقابل فـإن هذا الموضوع يَلقَى عنايةً فائقة في كليـات الطب العالمية، بسبب كثرة القضايـا والمشكلات التي نتجـت عن إهمال هذا الموضـوع في السابق كما سترى. يقول الإمام ابن سيرين رحمه الله يصف أصحاب النبي ﷺ رضي الله عنهم «كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم».

أمـا الحقيقة الثانية فهي أنَّ دراساتٍ علميـةً كثيرة أثبتت أن الكثير مـن الأطبـاء لا يطبّقون فعـلاً هذه المهـارات في الواقع رغـم قناعتهم

بأهميتها، إمّا إهمالا (بسبب ضيق الوقت وكثرة المرضى أوبسبب أي أعذار أخرى) أو أنهم في الواقع لا يجيدون هذه المهارات أصلا بسبب عدم تدربهم عليها.

لقد أثبتت الدراسات العديدة التى أُجريت على الأطباء في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الدول (بناءً على الدعاوى التي رفعت من مرضى يشتكون على أطبّائهم في القضاء الأمريكي) أنَّ أكثر الأطباء عرضة للاتهام ليسوا الأكثَر أخطاءً وإنما هم الأطباء الذين لا يجيدون التحدث إلى مرضاهم. وتبين من هذه الدراسات أن المرضى لا يرفعون الدعاوى القضائية على الطبيب الذي يتحدث إليهم بصدق والطبيب الذي يحبونه، حتى إن كانت ممارسته الطبية العملية خاطئة. وبالمقابل فهم يرفعون الدعاوى على الأطباء الذين لا يتحدثون إليهم جيدا حتى لو كانوا متميزين وبارعين في تخصصاتهم. فعلى سبيل المثال، قامت الباحثة (ويندي ليفينوسن) ببحثٍ مثير، استمعت فيه إلى مئات الأشرطة السمعية التي سُجلت في عيادات الأطباء يتحدثون فيها إلى المرضى، وبعد تحليل هذه الأشرطة ومقارنتها بعدد المرات التى قُدِّمت فيها شكوى من أحد المرضى على هؤلاء الأطباء، وجدت الباحثة أن الأطباء الذين كانت نسبة الدعاوى ضدهم قليلة نسبياً كانوا أفضل من غيرهم في فن التواصل مع المريض حيث كانوا يقضون وقتاً مع المرضى أطول بثلاث دقائق على الأقل من الأطباء الآخرين، وكانوا يشرحون المرض للمرضى بشكل أفضل، وكانوا يستمعون لمرضاهم بشكل أفضل، وكانوا أكثر مرحاً وانشراحاً من الأطباء الآخرين. المهم في القضية، أنه عند مقارنة القدرات العلمية مثل: عدد الشهادات، والفروع التخصصية، ونوع التدريب الطبي، والخبرة

العملية، وعوامل مهنية أخرى كثيرة، تَبيَّن أنه ليس لأي منها علاقةٌ برضى المريض[1].

بل إنّ الباحث (نالیني أمبادي) قد طوّر هذه الدراسة إلى درجة أخرى تكاد لا تُصدق، حيث حصل على الأشرطة السمعية التي استعملتها الباحثة السابقة في دراستها وقام بإجراء تعديلات فنيّة عليها بحيث اقتطع عَشْر ثوانٍ فقط من كل شريط، وحذف الأصوات ذات الذبذبات العالية من هذه الأشرطة بحيث لم يعد يفهم الكلام الذي قاله الطبيب فعلياً، وإنّما يمكن تمييز طبقات الصوت فقط في ارتفاعه، وانخفاضه، وتفاوت نغماته دون تمييز لمحتوى الكلام، وقام الباحث بدراسة عشر ثوان من كل جلسة طبيب ومريض من حيث: دفء صوت الطبيب، تسلطه على المريض، عدوانيته، حنانه، وغير ذلك من الصفات التي يمكن أن تستنتج من الصوت بطرق علمية دون اهتمام بالألفاظ[2]. كانت نتائج الدراسة مذهلة. لقد كان هناك علاقةٌ وطيدة بين نوعية الصوت الذي استخدمه الطبيب وبين رضى المريض المتمثل في عدد مرات رفع دعاوى قضائية ضد الطبيب.

هذه الدراسات وغيرها كثير، تدل دلالة قطعية على أن هناك مهارات معينة يتفاوت فيها الأطباء هي التي تؤدي إلى نجاح العملية التطبيبية أو فشلها. بهذه المهارات يتفاوت الأطباء في الواقع وليس بشهاداتهم العلمية أو

(1) Wendy Levinston et al, Physician-Patient Communication: The relationship with malpractice claims among primary care physicians and sergeons. Journal of the American Medical association 1997, 277 (7):553 - 559

(2) Nalini Ambady et al, Sergeons tone of voice: A clue to malpractice history:, Surgery 2002, 132 (1): 5 - 9

خبرتهم العملية فحسب. وهنا وجب التنبيه على أننا هنا لا نقلل من أهمية التمكن من المادة العلمية والتدريب الطبي الجيد والتخصص الدقيق وغير ذلك من العوامل العلمية والعملية، والتي هي ـ بلا شك ـ مهمة وفعالة، حيث إننا لا نريدُ طبيبا يحسن العامل مع المريض ولكن يُخطئ في تشخيصه أو علاجه، ولكننا ننبه إلى أن عوامل أخرى قد تكون أكثر أهميةً على الأقل في نظر المريض من قوة الطبيب العلمية ومهاراته العملية.

من جانبٍ آخر، فإن مهارات فن التواصل مع المريض لا تفيد فقط في ارتياح المريض وشعوره بإنسانيته ورضاه عن الطبيب، بل إنها قطعا ستنعكس إيجابا على دقة التشخيص ونجاح العلاج، حيث إن مهارات التواصل الجيدة تساعد على الحصول على المعلومات الدقيقة والوافية من المريض، وفهم مايقصد بها فعلا، وتسهم في القدرة على تثقيف المريض بمرضه وشرح البدائل العلاجية له بحسب سنّه ومستواه التعليمي، ومن ثم تشجيع المريض والأخذ بيده في مراحل العلاج المختلفة.

وفي مقابل دور الطبيب، تقع على المريض مسؤوليةٌ كبيرة في نجاح عملية التواصل بينه وبين طبيبه. تبدأ هذه المسؤولية من معرفة المريض لهذه الأهمية (وهو ما أرجو أن يسهم هذا الكتاب في تدعيمه)، فإذا عرف المريض أهمية التواصل مع الطبيب وانعكاساته على نتائج العلاقة بينهما، اهتمَّ به، وسعى إليه، وقيمه بعد كل زيارةٍ لطبيبه. عندئذ تنتشر هذه الروح، ويصبح فن التواصل هماً مشتركاً بين الطبيب والمريض. بالإضافة إلى ذلك، فإن على المريض قبل أن يذهب إلى الطبيب أن يستعد لهذه الزيارة، بأن يستجمع أفكاره، ويرتب قصته، ويكتب أسئلته، ويحاول أن يستفيد من الوقت الذي يقضيه مع طبيبه خير استفادة. إن المريض الذي يذهب إلى

طبيبه بقناعات مسبقة راسخة حول المرض وأسبابه وطرق علاجه، وحول دور الطبيب في علاجه، أو المريض الذي ليس لديه ثقة في طبيبه أو في الطب الحديث أصلا، كل هؤلاء لا يمكن أن يتواصلوا مع الطبيب بشكل فعال مهما حاول الطبيب ذلك وبذل فيه الجهد، فبعض المرضى يذهب إلى الطبيب متحدياً أو مختبراً أو مستهزِئاً أو عِجلاً إلى غير ذلك من موانع التواصل.

بين دفتي هذا الكتاب، تقرأ اثنتي عشرة قصة من أروقة المستشفيات والعيادات. هذه القصص كلها قصص مبنية على الواقع تم التقاطها من تجارب كثيرة مرت بي أو ببعض الزملاء في الوسط الطبي. هذه القصص تبرز تعقيدات النفس الإنسانية والطرق المتعددة للتعامل معها، وتصور بعض الطرق الجيدة وغير الجدية التي يتعامل فيها الأطباء مع مرضاهم ويتعامل فيها المرضى مع أطبائهم. سترى في هذه القصص كيف يفكر الطبيب وما الضغوط النفسية والعملية التي يمر بها في تعامله مع المريض، وسترى كيف يشعر المريض وما هي أولوياته وهمومه.

وبالنظر إلى المكتبة العالمية، نجد عشرات الكتب التي كتبها الأطباء يحكون فيها ما شاهدوه في حياتهم العملية مع مرضاهم كثير منها تحول إلى مسلسلات تلفزيونية تجارية مشهورة، ذلك لأن في هذه القصص من العبر والإثارة ما يستحق الرواية.

وعند النظر إلى ما احتوته المكتبة العربية نجدُ الكثير من الأطباء قد سبقوا بالكتابة عن بعض القصص التي حدثت لهم مع مرضاهم، وقد قصد معظمهم امتاع القارئ بالطريف والمفيد من هذه القصص والنوادر التي تؤثر في النفس، وتثير الفضول، وأحيانا الضحك، أو تبعث على العبرة والتفكر. ومن الرواد في ذلك الدكتور نجيب الكيلاني في كتابه

الممتع (حكايات طبيب) والدكتور محمد عرقسوس في كتابه (من ذكريات العمل الطبي)، والدكتور سعود التركي في كتابه (وقفات في رحلة طبيب، قصص وطرائف واقعية)، والدكتور زكريا آل فيصل في كتابه (طبيب عيون) وغير ذلك من الكتب المنتشرة. ولكني رميت في هذا الكتاب إلى غير ما رمى إليه هؤلاء الفضلاء، فلم أقصد أن أقص على القارئ الكريم غرائبَ ما شاهدت في حياتي الطبية من القصص ـــ وما أكثر ما رأيت ـ أو أن أستلهم العبر الإيمانية والعملية من قصص المرضى ـ وما أكثر ما استلهمت - أو أن أسهم في التثقيف الطبي للمرضى على أهمية ذلك كله، وإنما كان هدفي من رواية هذه القصص أن أركز على الصعوبات التي تكتنف التواصلٍ بين المريض والطبيب وطرق تحسينها من جانب الطبيب والمريض، هادفا إلى أمرين مهمين: (1) أن أبين لزملائي الأطباء (وخاصة المتدربين من الطلاب وأطباء الامتياز والدراسات العليا) أهميةَ العناية والاهتمام بالتواصل الصحيح مع المريض، (2) أن أبين للمريض أهمية التعاون مع الطبيب في الوصول إلى مستوىً عالٍ من التواصل الذي سينعكس عليه إيجابيا في النهاية. غير أني تركت هذه القصص بين يدي القارئ بعد ذلك، يستلهم منها ما شاء من العبر الإيمانية والاجتماعية والنفسية، ويتأمل من خلالها دهاليز النفس الإنسانية في لحظات ضعفها. وقد قصدت عدم التعليق على هذه الأمور في أغلب القصص حتى أترك المجال لخيال القارئ.

وفي الختام، أبشر القارئ الكريم أن كليات الطب في الجامعات السعودية، وبعض الجامعات العربية قد بدأت تتنبه إلى أهمية تعليم فَن التواصل مع المريض وتدريب الطلاب عليه، وقد أخذت معظم الكليات بعض الخطوات العملية في ذلك، ولكنّا بحاجة إلى أن نُكثِّف هذه الجهود لتتحول

هـذه المحـاولات المتواضعة إلى همٍّ متصـل يُطَبّق في مـوادٍّ رسمية مكثّفة، وتدريـب متواصل، وتقييم مستمر، حتى يخرج الجيـل القادم من أطبائنا أكـثر وعيا بهـذه القضية، وأمهر منا في التعامل معهـا. ومن خلال العديد مـن الجهود نسعى إلى تثقيف المريـض أيضاً بأهمية تحسين التواصل بينه وبين طبيبه واهتمامه بهذا الأمر في كلِّ مرة يزور فيها طبيبه.

والمأمـول أن تسهـم هـذه الجهود في جعـل تواصلك مـع مريضك أكثر فعاليـة، وأقرب إلى تحقيق مرادك من تعزيز الصحة أخي الطبيب وأختي الطبيبـة، وجعـل زيارتك للطبيب أكـثر شفافية وأنفع لـك، وأقرب إلى ما تستحقه من تقدير عقلك وإنسانيتك أخي المريض وأختى المريضة.

متع الله الجميع بدوام الصحة والعافية.

عن عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: قيل يا رسول الله، من أحب الناس إلى الله؟ قال صلى الله عليه وسلم:

«أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرورٌ تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربةً، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعا، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحبُّ إلي من أن أعتكف في المسجد شهراً، ومن كفَّ غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضًى يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له أثبت الله تعالى قدمه يوم تزول الأقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخلُّ العسلَ»

صحيح الجامع (176)

والسلسلة الصحيحة (906) للألباني

تنبيه

القصص الواردة في هذا الكتاب قصص مستوحاة من واقع العمل الطبي في العيادات الخارجية وبين أروقة أجنحة التنويم، هذه القصص استلهمت من تجاربَ شخصية، ومن تجارب زملائي من الأطباء والطبيبات، وبالتالي فهي ليست قصصاً واقعية لمرضى بأعيانهم (ما عدا القصة الرابعة).. ولكنها قصص أدبية نسجت بناء على تلك التجارب، الغرض من سردها هو مصلحة الأطباء والمرضى كما سبق أن بينت باستفاضة في المقدمة. كل الأسماء الواردة في هذه القصص أسماء غير حقيقية ومستعارة لغرض السرد القصصي. إن كان هناك تشابه غير مقصود بين أحد هذه القصص وبين قصة مرضك أو مرض أحدٍ تعرفه، أو حدث تشابه بين اسمك وبين أحد الأسماء الواردة في هذه القصص فإن ذلك من قبيل المصادفة ليس إلا، كما أنه تم تغيير نوع المرض وجنس المريض وحيثيات القصة حتى لا تشابه هذه القصص قصة مريض بعينه.

«(حقي)، ما أغراها من كلمة تجتذب
الانتفاعيين، وأما (واجبي) فإنها كلمة لا
تجتذب إلى النافعين»

(مالك بن نبي)

شيك من غير رصيد

(1)

زجـرت تصاريـف الزمـان فمـا يقـع
لي اليـوم منهـا كان بالأمـس لي وهمـا
(أحمد شوقي)

العائلـة تجتمع علـى المائدة، هـذه أجمل اللحظات التـي يقضيها العم صالح مع العائلة، محمدٌ ابنه الأكبر يتلكأ، لم يعد يشعر بالدفء والحماس ليـأكل مع العائلة كالطفـل الصغير، هو الآن في الثانوية. عالم خارج البيت أكثر إثارة من عالمه داخل البيت.

- أم محمد: «محمد يا حبيبي والله أتعبتني، يالله أبوك ما يحب يجلس ينتظرك على الأكل كذا، كُلْ يا أبو محمد، محمد يلحق بعدين».
- العم صالح: «لا، لا، لو سمحنا لكل واحد ياكل لوحده تفككت الأسرة وما صرنا عائلة».
- حليمـة: «أبـوي، الأربعاء عنـدي حفلة لصديقاتـي في المدرسة أبغاك تودينـي».
- العم صالح: «أي أربعاء يا بنتي».
- حليمة: «الأسبوع القادم».
- العم صالـح: «والله يا بنـتي الأسبوع القادم عندي موعد القلب في الرياض».

- أم محمد: «ما شاء الله، مرت ستة أشهر يا أبو محمد؟».

- العم صالح: «أيه والله، هذا حال الدنيا. وبعدين أنا والله حاسس إني تعبان ويمكن تجمعت الموية مرة ثانية في الرئة».

- محمد: «طيب يا بوي ممكن أنا أودي أختي حليمة».

- العم صالح: «لا يا محمد ما في سواقة مع أحد غيري حتى تحصل على الرخصة الرسمية».

- محمد: «ولكن يا بوي أنت تعرف إني أسوق كويس وأنا أبغى أساعدك».

- العم صالح: «أعرف يا ابني لكن هذا نظام».

- أم محمد: «لا تنس يا أبا محمد هذه المرة أن تسأل الطبيب عن الأكل المناسب لحالتك».

- العم صالح: «هذا إذا أعطاني أكثر من خمس دقائق».

- محمد: «ولا تنس يا بوي أن تُحضرَ لي ورقة المرافق كما فعلت في المرة السابقة اللي نسيت أن تحضرها حتى لا يحسبوا علي في المدرسة غياب».

- العم صالح: «والله يا وليدي ما نسيت والدكتور ما قصر كتبها لكن لقيت طوابير عند التقارير الطبية، وبعد ما انتظرت ساعة وزيادة قالوا الدكتور كتب الورقة غلط والتاريخ غير دقيق، حاولت أصعد إلى العيادة لأصحح التقرير من الدكتور لقيت خمسين واحد عند الباب فقدت الأمل ومشيت».

- محمـد: «يعنـي أنا أتـورط فيها، عامل خـير ورايح معـاك وبعدين ينحسب علي يومين»..

- أم محمد: «عيب يا ولد تكلم أبوك بهذه الطريقة».

- العم صالح: «هو معاه حق يا أم محمد، هو معاه حق».

- حليمة: «أبوي، خذني معاك المرة هذي بدل محمد».

- العم صالح: «أنتِ ما تفيديني في شيء، بالعكس تبلشيني».

- حليمـة: «أبغى أروح سوق الفيصلية، سمعـت إنه خطير، كل البنات راحوه، أرجوك خذني».

- العم صالح: «يا بنتي، هذه رحلة علاج وماهي تمشية! رايحين ناخذ العلاج ونرجع ديرتنا، بعدين أنتي عندك دراسة».

- حليمة: «لاحقين على الدراسة».

- العم صالح: «ذكريني يا أم محمد أمر على الشؤون الصحية بكرة حتـى آخذ التذكـرة لأن آخر مرة قالوا أنـي تأخرت وضاعت علي التذكرة».

- حليمة: «أبوي يعطونك تذكرة درجة أولى»؟

- العـم صالح: «يا بنتي جزاهـم الله خير، عساهم يعطونا حتى ولو مع العفش».

(2)

ما آب من سفر إلا وأزعجه
رأي إلى سفر بالعزم يزمعه
كأنما هو في حل ومرتحل
موكل بفضاء الأرض يذرعه
(ابن رزيق البغدادي)

- أم محمد: «أبو محمد، يالله قوم ستتأخر على الرحلة».

- حليمة: «مو موعدك يوم الأربعاء ليش تسافر من الاثنين؟».

- العم صالح: «يا بنتي والله شقاء، لابد أن أعمل التحاليل الثلاثاء مبكرا جدا حتى يراها الطبيب في الموعد يوم الأربعاء وما في رحلات مبكرة الثلاثاء».

- حليمة: «ويدفعون لك ثمن الفندق يا بوي؟».

- «لا يا بنتي، الدولة ما تقدر تدفع كل هذه المبالغ لكل المرضى، جزاهم الله خير يدفعون التذاكر ويوفرون الخدمة الطبية والأدوية مجانا لجميع المواطنين، أين توجد دولة تفعل ذلك، يالله أنا تأخرت». الطائرة ممتلئة عن آخرها. يبدو له أن كل من في الطائرة مرضى متجهون إلى الرياض، غريب أمر الرياض، كل الناس في حاجتها وليست في حاجة لأحد. حاول أن يتجاذب أطراف الحديث مع من بجواره فجذب الجار الحديث كله جذبة حتى تقطعت أوصاله.

اتجه إلى مبنى الشقق المفروشة المجاور للمستشفى والذي تعود أن يسكن فيه منذ أن أُصيب بالجلطة القلبية قبل ثلاث سنوات. إنها نظيفة وأهم شيء أنها رخيصة.

- العم صالح: «ويش؟ ميتين ريال؟ كانت بمية قبل كم شهر!».

- الموظف المتجهّم: «هذي الأسعار الجديدة».

- العم صالح: «ولكن وشلون يرتفع السعر مئة بالمئة في بضعة أشهر؟».

- الموظف: «هذه تعليمات الإدارة».

خرج من هذا المبنى يبحث عن مبنى آخر، هناك العديد من المباني الأخرى بجوار المستشفى، مرَّ عليها واحدةً واحدةً، لا يوجد شقق فارغة

- «سبحان الله، أين سأذهب، إذا أخذت تاكسي فربما أدفع أكثر من مئة ريال متنقلاً بين مبنى ومبنى، وسأحتاج إلى تاكسي حتى آتي إلى المستشفى يومياً وربما دفعت أكثر من مئة ريال».

عاد إلى صاحب المبنى الأول ودفع خمس مئة ريالٍ للتأمين.

يبدو أنّ في الشقة رائحةَ تدخين

- العم صالح: «يا أخي، الشقة فيها رائحة تدخين وأنا إنسان مريض بالقلب، أرجوك ابحث لي عن غرفة أخرى».

- الموظف: «ياأخي هذه هي الغرفة الوحيدة المتبقية، ثم إن هذه الغرفة ممنوع فيها التدخين».

- العم صالح: «ولكنْ كأنّ مدخنةً قد مرت بها».

- الموظف وقد رَأفَ بحاله: «يا عمّ، الناس هنا لا تحترم الشقق، كل ستة أشهر تقريبا تتحول الشقة إلى خرابة وتحتاج إلى صيانة وإعادة تأثيث ولذلك ترتفع الأسعار».

- العم صالح: «الله المستعان».

(3)

قـد تحملـت في الهـوى
فـوق مـا يحمـل البشـر
أشـرح الشـوق كلـه؟
أم مـن الشـوق أختصـر؟
(شوقي)

«الطوابـير الطوابـير الطوابير». هـذا هو شعار هـذا المستشفى، وقف في طابـور التحاليل أكثر من ساعة، شاهد أمامـه طبيباً تخطى الصفوف مُحضراً معه امرأةً معه لتحلل قبل الناس.

لا بأس، هـؤلاء هم الذين يسهـرون على راحتنا وخدمتنـا، كلّ الناس لديهـم واسطـة في مؤسساتهـم فلماذا لا يكـون مثل ذلـك للأطباء؟. كم ساعد موظفُ الخطوط شخصاً متأخراً ليس عنده حجز فركّبه في الدرجة الأولى قبل الناس، وكم أصدرت جوازات من البيت، وكم وكم...

- موظف التحاليل بعصبية مفرطة: «صائم؟».

- العم صالح: «لا، لست صائم».

- الموظف: «لازم صائم».

- العم صالح: «لا، أنا سألت الطبيب وقال مو لازم صائم».

- الموظف: «دكتور مافي معلوم، أنا في معلوم انت لازم يكون صائم».

- العم صالح: «يا أخي اتصل على الدكتور واسأله».

الموظف يأخذ أوراق مريضٍ آخر.

- العم صالح: «يا أخي، أرجوك أنا أنتظر من ساعة».

- الموظف: «ما في صائم ما في تحليل».

- العم صالح: «طيب أنا موعدي بكرة».

- الموظف: «ما في صائم ما في مزبوط تحليل».

ذهب إلى مكتب خدمات المرضى، لا أحدَ في المكتب سوى عشرات المرضى معظمهم من النساء. انتظر ربع ساعة، أتى الموظف. فتكدس الناس عليه كأنهم قطع حديد انجذب إلى مغناطيس. ويبدو أن الموظف يعتقد فعلاً أنهم قطع حديد..

- مراجع: «الملف مغلق وقالولي ما تجدده مع إني سعودي وعندي موعد في عيادة السكر».

- مراجع آخر: «موعدي راح، كانت عندنا حالة وفاة وأحتاج موعداً جديداً».

- مراجعة: «عندي موعد اليوم ورحت العيادة والعيادة مغلقة، أين أذهب الآن؟».

- مراجعة مسنة: «الله يوفقك يا وليدي، أنا عندي تحويل من المركز الصحي وقالوا لي الموعد بعد سنة وأنا تعبانة والله».

- مراجع مُقْعد: «طالب تقرير من أكثر من شهر وكل ما أراجع في التقارير يقولون إن التقرير يحتاج إلى توقيع».

- مراجعةٌ مفرطة في السمنة: «عندي موعد مع القلب، وموعد مع السكر، وموعد مع الكبد، وموعد مع النساء، أريد الله يرحم أبوك أن تجمعهم لي في يوم أو يومين لأني من خارج الرياض».

الموظف يحاول أن يساعدهم بقدر استطاعته، حتى فقد صوابه تماما وأخذ يحاول التذرع بالخروج من المكتب الذي اختنق فيه. ولكن هيهات، فقد حُوصر المكتب من كل صوب. وهو في محاولة يائسة للخروج وجده أمامه، أحس بعينيه الزائغتين وزفراته الحارقة وشعر بالقرف الذي تمثل في كل قسمات وجهه.

- العم صالح: «يا أخي الله يرضى عليك، موظف التحاليل رافض أن يحلل لي بحجة أني ماني صائم».

- الموظف وقد اسودت الدنيا في وجهه: «طيب أنا وش اسويلك»؟

- العم صالح: «يا أخي اسمعني أرجوك، أنا سألت الطبيب وقال لي إنني لا أحتاج إلى صيام».

- الموظف مستظرفا: «طيب كلم الدكتور».

- العم صالح مستنكرا: «وين ألاقيه الآن؟».

- الموظف وهو يخرج من بين أكوام المراجعين: «اسأل عنه في القسم».

لم يكن «تصريف» كهذا لينطلي عليه بعد خبرة ثلاث سنوات في المستشفيات. هو يعرف جيداً أن الوصول إلى طبيب استشاري في هذا المستشفى أصعب من التنقيب عن الذهب في الصحراء القاحلة.

صارت عنده مناعة، وصار يعرف أن «لكل تصريف طبي» هجوماً مضاداً.

عاد ووقـف في طابور التحاليل مرة أخرى. مـرت ساعةٌ أكثر إثارةً من الساعة الأولى

- الموظف وقد حلل لمئة مريض آخر: «في صوم؟».

- العم صالح محتالاً: «نعم».

- الموظف وقد استعد بإبرته: «كم ساعة؟».

- العم صالح مستهبلا: «كم ساعة لازم؟».

- الموظف: «لازم عشرة ساعة».

- العم صالح: «أنا في صوم إثنعشر ساعة!».

(4)

أشـتري الأحـلام في سـوق المنـى
وأبيـع العمـر في سـوق الهمـوم

(إبراهيم ناجي)

ملـل قاتل ليلـة الموعـد. تستمر معركـة التحاليـل عادةً طـوال الفترة الصباحيـة، دائما إراقـة الدماء تحتاج إلى صَبر وجهـاد، ولكن ما أعظم الفرق بين الدماء الغالية والدماء الرخيصة.

الرياضـ تبدو وكأنها لا ترحب إلا بأهلها، فإذا لم يكن لديك سيارة ولا تعرفُ أحداً، فالرياض مدينة جافة وليست اجتماعية أبدا.

- «الشقة أفضل». يفتح التلفزيون. «آخٍ ما أقساه، نصف القنوات أخبار تزعج النفس وتقلق الخاطر، ونصفها الآخر رقص ومجون يزكم الأنف ويجرح الحياء. أين الترفيه؟ أين الترفيه؟».

أخذ يتأمل سقف الغرفة في ملل قاتل، يستنشق عبير رائحة الدخان، وينتظر اللقاء الموعود والموعد المنتظر في وجوم وتبلد.

تتسرب الأشعة الحارقة من بين فتحات الستارة التي لا لم تُغْلَق جيداً، ربما بفعل عوامل التعرية البشرية التي تحدث عنها صاحب العمارة أمس أو ربما بسبب رداءة نوعية أثاث الشقة الذي لم يتحدث عنه الرجل آنفا. كيف حُفظت أشعة الشمس من هذه الحرقة وهي لم تزل تحرق الناس إلى آخر اليوم؟ يستسلم لنوم متقطع غير مريح.

- موظف الاستقبال من غير أن يرفع رأسه: «ورقة الموعد؟».

يأخذ الورقة ويتمتم مثل الصنم الذي لا يحوى أي معالم: «انتظر».

يبتسمُ أبو محمد، ويتذكرُ تلك الفتاة المختارة بعناية والتي قدم لها ورقة الموعد في المرة السابقة عندما اضطر إلى خلع ضرسه في الرياض مستغلاً ذلك الوقت. كانت العيادة الخاصة مؤثثة بأحسن الأثاث. لا زالت نبرات صوتها ترن في أذنيه، والكلمات تخرج متراقصةً من خلف نقابٍ مزركش يفضح أكثر من أن يخفي.

«اتفضل ارتاح في غرفة الانتظار يا عمي ولن نطيل عليك، سيكون الطبيب معك بعد لحظات».

كانت كلماتها كترنيمات بلبل عاشق عدا كلمة عمي هذه لم تعجبه وبدت كنعيق غراب خسر فريقهُ في مباراة!

أعـاده إلى الواقع ما يسمـى «صالة الانتظـار» في المستشفى، الكراسي العَشْـر الموجودة، يجلسُ على كل كرسي منهـا مريضان يائسان، تفوح من الجو موجات المرض والهم، ورائحة العرق والتدخين أيضا.

هـو يعرف أن الموعدَ المكتوب في ورقـة المواعيد موعدٌ وهمي مقرب إلى ثـلاث ساعات مـن الموعد الحقيقـي، لذلك نـزل إلى الأسفـل يتمشى في ردهات المستشفى يحرك رجليه ويمضى الوقت. تأمل طبيباً شاباً واقفاً في آخر الممر يتحدث مع زميله. يصف له استشارياً، فهو يلوح بيديه ويمثل دور شخصٍ آخر، وزميله يضحك من الأعماق، اقـترب أكثر ما ألذ الإنصات إلى الأطبـاء، يا إلهي!!، إنه يقلد مريضاً عاينه قبل قليل. أخذ يضحك من أعماقه، ما أكثر ما يواجه الأطباء من غباء المرضى وسذاجتهم، وما أسوء ما يعانونه من وقاحة بعضهم وإهمالهم، تخيَّل ابنَه محمد طبيباً ناجحاً في مستشفى، أفضل ما سيحدث عند ذلك أنه لن يكونَ بحاجة إلى أن يقف في هـذه الطوابير الطويلة، وسيعاينـه الاستشاري في كل مرة بدلا من الأطباء المتدربـين، وسيُجري التصوير الشعاعي في نفس اليوم، وسيتوسط لقبيلته كلهـا ويكون بإمكانـه أن يساعد النـاس. ما أجمل أن يكـون عندك طبيب استشـاري قريب، فقد يكون أحياناً أكثر جدوى من قريب لك في الخطوط السعودية أو الأحوال المدنية أو المرور. يراوده خوف، كم مضى من الوقت؟ ماذا لو حصلت معجزة ونادوا علي في الموعد؟

صعـد إلى غرفـة الانتظار مرة أخرى بسرعة، وجـد الغرفة كما تركها منذ ساعة، الناسُ فيها كأنهم محنطون، والرائحة ذاتها. وقف بجوار باب العيـادة يختلس النظر، هل هناك طبيب فعلاً، وهل هناك مرضى يدخلون ويخرجون فعلا. أم أن سبب عدم التحرك هو تأخر الطبيب؟

تخرج الممرضة، يا إلهي!!، هناك طبيبٌ فعلا، كلما فُتح الباب اشرأبت أعناق الأكوام الواقفة أمام الباب ودخلوا دفعة واحدة، ثم تسمع صوت الطبيب يدعو عليهم بالويل والثبور ويطردهم إلى الخارج شر طردة. ولكن وبين الفينة والآخرى يدخل أحد أصحاب شماغات (جيفينشي) المنشاة بعناية، أو يدخل طبيب ومعه مريض أو مريضة، أو يدخل شخص معه ملف كبير وصور أشعة ربما جمعها على مدى عمره فهو يكاد ينوء بحملها.

يعود إلى الصالة، الناس المحنطون في أماكنهم، والرائحة تزيد. ينظر إلى الطاولة البائسة في وسط غرفة الانتظار، عليها مجلة قديمة تحتاج إلى العناية المركزة وبعض الكتيبات الوعظية المهترِئة، ابتسم مرةً أخرى وهو يتذكر صالة الانتظار في تلك العيادة الخاصة، التي طرزتها الكنبات الفارهة وانتشرت في جميع زواياها الكتيبات «النافعة» التي ترشد المريض إلى ضرورة عمل التحاليل الطبية الشاملة كل نصف ساعة، وعمل تدليك منعش كل يوم، وتبييض الأسنان كل خميس وجمعة، وتنعيم البشرة كلما أريق ماء الوجه عليها، والتأكد من خلو المعدة من جرثومة المعدة، وخلو المحفظة من فيروس النقود وهكذا، ولكنه للأسف لم يستطع أن يستمتع بتلك الجلسة الجميلة ولا أن يقرا تلك الكتيبات التثقيفية المتميزة لأنه دخل للأسف في موعده عند طبيب الأسنان. أعاده إلى الواقع المرير نظراتُ الناس من حوله، لاحظ أن من حوله في صالة الانتظار ينظرون إليه نظرةَ الشفقة، وقد انفرجت أساريرهم قليلاً، وبدأت الحياة تدب في أوصالهم برؤية هذا المعتوه الذي يبتسم في غرفة المحنطين وغرفة الرائحة. لم تكن النصف ساعة التي قضاها في الانتظار مملة هذه المرة، كانت تتخللها جولات تفقدية على أروقة المستشفى، وكوب شاي بحليب نصفه سكر في

بهـو المستشفى، وكلما بدأ الملل يدب تـرك النفس تسرح في ملكوت العيادة الخاصة وفي طريقة الاستقبال.

(5)

أراك علـيَّ أقسـى الناس قلبا
ولي حـال تـرق لـه القلـوب
حبيب أنـت قـل لي أم عـدوٌّ؟
فـفعلـك لـيس يـفعلـه حبيب

(البهاء زهير)

يدخـل العيادة فيتسلّـلُ خَلفه رجل وامرأة، يطردهـم الطبيب بلباقة وهـو يعـرف أنه فقط يؤجـل الحقيقة المـرة، وهي أنهـم سيدخلون شاء أم أبـى، ففي هذا المستشفـى لا توجد مخارج طوارئ للأطباء مثل بعض المستشفيات الأخرى.

- الطبيب : «أهلاً يا عم صالح، كيف حالك».

كالعـادة، كل مرة يدخلونه علـى طبيب جديد، وكالعادة لا توجد بطاقة تعرف بالطبيـب، ولا يُعرِّفُ الطبيب بنفسه، وكالعادة لا يقف تحية لي وأنا في الستين، ما أجمل أن يعتاد الإنسان على الروتين.

- العم صالح: «الحمد لله».

- الطبيب: «كيف التنفس؟».

- العم صالح: «والله تعبان يا دكتور».

تَكْفَهرُّ ملامح الطبيب، ويسمع العم صالح ما يدور في رأس الطبيب

- «إنا لله، هذا مريض لصقه ما يتزحلق بسرعة!».

- العم صالح: «الكتمة تزيد مع الوقت وهناك انتفاخ في الأقدام».

يسأله الطبيب أسئلة كثيرة، ولكن لا يدعه يكمل الإجابة حتى يقفز إلى السؤال اللاحق، وبحركة خاطفة لا يجيدها إلا الأطباء المتمرسون ينهي الحديث ويطلب الفحص.

الممرضة التي يطفح البشر من محياها والتي يشع منها حُبُّ العمل والذكاء: «بابا ارفع ثوب نزل سروال».

- العم صالح متعجباً من هذه المفاجأة الجديدة: «نزل سروال!».

يا إلهي، ربما دخلت على عيادة المسالك ولهذا سألني الطبيب عن البول. السماعة ذاتها، ولكن قبل أن يقول الطبيب شيئا تنفس العم صالح بعمق كالعادة ولكن الطبيب خدعه هذه المرة فقد طلب منه التوقف عن التنفس قبل طلب أخذ النفس العميق، عاد الطبيب في حركة وطواطية محكمة إلى مكتبه وبدأ يملأ بعض نماذج طلب التحاليل والأشعة أحس بالرغبة في أن يبقى نائماً على السرير فقد كان واقفاً الساعتين في الخارج ولكنَّ الممرضة الخبيرة فتحت الستارة ورفعت الغطاء إيذانا بانتهاء المسرحية.

- الطبيب: «يبدو أن القلب قد ضعف قليلاً ولكن لا تقلق سنقوم ببعض التحاليل والصور الضرورية ونعطيك موعداً قريباً وربما تحتاج إلى قسطرة».

وأغْلَقَ الملف، لم تكن هذه الحركات المكشوفة لتنطلي على العم صالح. مساكينٌ أولئك المرضى الذين تنطلي عليهم هذه الحركات، العم صالح

مريضٌ قديم قد تخرج من مدرسة الزحلقات والتصريفات بامتياز، وقد عاصر أكثر الأطباء مهارة في هذا الفن، اعتدل في جلسته وأخذ نفسا عميقا وقال:

- «ما هو سبب ضعف القلب يا دكتور مادمت آخذُ الأدوية بانتظام؟».

الطبيب لم يكن يتوقع هذه اللكمة الغادرة من العم صالح، وفي مناورة مكشوفة قال: «ستبين التحاليل والصور هذا الأمر».

واستمرت المناورات بين الرجلين، الطبيب الذي يبدو أنه قليل الخبرة في مهارة إنهاء الجلسة يحاول جاهدا تطفيش العم صالح والعم صالح تسمرّ على الكرسي لا يتحرك يسأل عما بدا له. فأدرك الطبيب بعد عَشْرِ دقائق كاملة أنَّ آخر الدواء الكي فأغلق الملف وقام ثم مدَّ يده مصافحاً. وهل يؤلم الكي في أجساد متبلده. وبمنتهى البرود، أشار العم صالح إلى الدكتور أن اجلس. وقال:

- «ما طبيعة التحاليل والصور التي طلبتها يا دكتور؟».

يشرحُ الطبيب باقتضاب ويحاول آخر محاولاته قائلاً:

- يا عم صالح: «العيادة مزدحمة اليوم كثيراً كما ترى وسوف أشرح لك كل شيء في الموعد القادم بعد أن تقوم بالتحاليل».

لم تكن هذه الحيلة كذلك لتنطلي على العم صالح، ولكنه رحم الطبيب وتذكر لو أنّ ابنه محمداً طبيبَ المستقبل صادف مريضاً مماحلاً مثله يحاول ابتزاز الطبيب هكذا، يقف العم صالح، فتنشرح أسارير الطبيب وترتسم على محياه ابتسامةٌ لم تظهر منذ الصباح.

- «مع السلامة يا عم صالح».

ود العم صالح لو يجلس مرة أخرى، ولكنه رأف فعلاً بالطبيب المسكين الذي لا تزال تنتظره الآهوال بقية يومه.

فتح الباب، وكأن أعداد الأكوام الواقفة عند الباب تزيد ولا تنقص، لأن منهم من لم يجد موعداً فعاد للطبيب، ومنهم من لم يجد دواء في الصيدلية، ومنهم من في وصفته خطأ، ومنهم من أعطته الصيدلية دواء جديدا وعلى الرغم من شرح الصيدلي له عن طريقة استخدام الدواء عاد إلى الطبيب ليسأله، ومنهم من ذهب لإحضار أدويته من السيارة لأنه لا يعرف منها إلا أنها حبةٌ حمراء صغيرة وحبتان بيضاوان كبيرة، فيهم أقرباء بعض المرضى الذين لم يكونوا معهم في الموعد وهم يريدون الآن أن يسألوا ويستفسروا، ومنهم ومنهم، وتتزايد أكوام المرابطين بسرعةٍ في متوالية حسابية مرعبة.

وجد طريقه بصعوبة بين هذه الأكوام، ليجد أكواماً أخرى عند موظف الاستقبال، تركه وذهب إلى قسم الأشعة، لقد طلبَ الطبيب نوعين من الأشعة ، في القسم الأول أقرب موعد بعد شهرين، وفي الثاني بعد ثلاثة أشهر، توكل على الله وسجل المواعيد، عاد إلى موظف المواعيد في العيادة ففاجأه الأخير دون أن ينظر إليه أنَّ أقرب موعد بعد تسعة أشهر. حاول عابثاً أن يتفاهم مع الموظف ولكنه كان يرد برفع عارضيه.

- العم صالح وقد اسودت الدنيا في وجهه: «ما العمل الآن؟».

- الموظف مصرفاً: «كلم الطبيب يعجّل لك الموعد».

نظر إلى الكوم المتنامي المتكور عند باب الطبيب وقرر الانضمام إليهم والانتظام في صفوفهم، وهو الذي كان قبل قليل يَعُدّهم همجيين وفوضويين وغير متحضرين، لقد كان العمُ صالح مربوعَ القامة، ولعلَّ هذا مما يفيد في مثل هذه المواقف، دخل بعد أربعة مرضى بهبوط مظلي، كاد الطبيب أن يُغْمَى عليه عندما شاهده في المرة الثانية.

وبعد تبادل بعض اللكمات الطائشة، عجّل الطبيب الموعد ثلاثة أشهر، وهو موعد استثنائي غير مسجل في الكمبيوتر.

نزل إلى الصيدلية، ووجد كوماً آخر من المرضى يتدافعون عند النافذة، كان كثير منهم ضمن الأكوام السابقة التي رآها. لم يطل الانتظار كثيراً، بعد حوالي نصف ساعة، ناول الصيدلي الأدوية للعم صالح.

- ينظر الصيدلي إلى الأدوية والوصفات: «حبتان قبل الأكل، وهذا حبة في الصباح، وهذا مع الأكل، وهذا غير موجود».

نَظَر العم صالح إلى العلاج الذي لم يكن متوفراً، وقال في سريرته: «أرجو ألا يكون دواء سيولة الدم والحفاظ على الدَّعامة، والذي يكلف مئةً وسبعين ريالاً في الأسبوع». وطبعا كان هو.

- العم صالح: «متى يأتي الدواء؟».

- الصيدلي: «اتصل بنا الشهر القادم».

كيف تسربت عبارة «راجعنا بكرة» من الدوائر الحكومية إلى المستشفيات؟ وهل يعرف المرض بكرة؟

(6)

فقالا: نعم، نشفي من الداء كله
وقاما مع العواذ يبتدراني
فما تركا من عوذة يعرفانها
ولا رقية إلا بها رقياني
وقالا: شفاك الله، والله ما لنا
بما حملت منك الضلوع يدان

(عروة بن حزام)

العم صالح يخرج من المستشفى قبيل العصر، على الأقل خرج ببعض الأدوية وكأسٍ من الحليب بالشاي الذي نصفه سكر، وجولة مصارعة مثيرة مع هذا الطبيب المستجد.

ركب التاكسي، ودخل في شبه غيبوبة يتأمل ما حدث في اليومين الماضيين، وهل يحصل الإنسان على الأجر بسهولة؟ لابد من الصبر، لكنه قلق من أجل ضيق التنفس، ويحمل هم القدوم إلى الرياض في الأشهر التالية من أجل صور الأشعة وموعد المتابعة، ويحمل هم الدواء الذي لابد أن يشتريه.

توقف عند أقرب صيدلية، ولكن لابدَّ أن تكون كبيرة لأن هذا الدواء غير متوفر في جميع الصيدليات.

دخل الصيدلية الأنيقة واشترى الدواء. تسكع في الصيدلية قليلا مستمتعا بهواء المكيف البارد جداً.

بعـد أن دخل التاكسي الذي كان فى انتظاره، لمح اللوحة الكبيرة المعلقة فـوق الصيدلية، يا إلهي!!، إنه المركز نفســه الذي قدمت إليه عندما زرت طبيب الأسنان. ابتسم، وتنهد، حاسب التاكسي، ونزل من السيارة.

- «أختى الكريمة، متى ممكن أن أعمل هذه التحاليل والصور؟».

- موظفة الاستقبال: «اليوم يا عم ولا يهمك».

- العم صالح مذهولا: «ومتى ممكن أرى استشاري القلب؟».

- الموظفـة وقد علتهـا ابتسامة مشرقـة: «اليوم طبعاً ياعـم ولا يكون خاطرك إلا طيب».

- العم صالح وقد سال لعابه: «وكم يكلف كل شيء يا بنتي؟».

- الموظفة بثقة: «أربعة آلاف ريال فقط يا عمي».

- العم صالح من دون وعي: «عمى يعميكي!!».

«إن الكلمات في بعض الأحيان يكون
لها قوة الأفعال»

إيلي وايسل

براكين القلق

(1)

أتـــــرك الجــــرح لحــظــة يتكلـم
رُبَّ جُــــرح يــطـيــب حــــين يــقــول
(القصيبي)

خرج من عيادته بعد أن عاينَ أكثر من عشرين مريضاً، كان متعبا بحق ومستهلـكا فكريا ونفسيا وجسديا، وهكـذا تكون حاله عادةً بعد عيادةِ يوم الثلاثـاء، هـذه العيادة تستنزفه استنزافا، خرج مـن العيادة كأنه سجين أفرج عنه قبل الموعد المحدد. أمسك به على باب العيادة:

- «دكتور؟».

- «نعم».

- «أرجوك أريد أن أسألك سؤالا في خمس دقائق».

- «أهلاً وسهلاً».

- «دكتور، أريد أن أتحدث معك».

- «بخصوص ماذا؟».

- «أنا... أنا... شخصت بفيروس الكبد الوبائي (ب)».

قالها بعد تلعثم وقد ارتعدت فرائصه وبدا عليه القلق الواضح.

- «تفضل بالدخول، هذا الموضوع يحتاج إلى جلسة طويلة نناقش فيها الأمر بالتفصيل لأتمكن من شرح الأمر لك والرد على أسئلتك، ما رأيك لو تأتيني الثلاثاء القادم الساعة الثامنة والنصف صباحاً؟».

- «ولكن دكتور... يعلم الله أنني لم آتيك اليوم إلا بعد تردد وخوف كبير، أرجوك يا دكتور دعنا نتحدث الآن».

- «والله يا أخي عندي اجتماع مهم بعد ربع ساعة لابد أن أصلي فيها الظهر، أعتذر منك. ما رأيك أن تأتيني غداً في عيادة الأربعاء».

- «كيف آخذ موعد؟».

- «المواعيد الآن أكثر من ستة أشهر، تعال من غير موعد، العيادة تبدأ الواحدة تعال أنت قبل ربع ساعة».

- «شكراً، شكراً دكتور الله يكثر من أمثالك».

وهم على رأسه يريد تقبيله ! فتفلت منه وخرج من العيادة..

شغل باله. قدَّر أن عمره ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين. شاب يبدو أنه مثقف يرتدي ملابسه بأناقة بالغةً ويبدو أنه من أسرة كريمة. قال في نفسه: «لابد أنه ضحيةٌ جديدة لطبيب مستهتر زَفَّ إليه خبر إصابته بفيروس الكبد بشكل خاطئ فصدم الرجل وتعقدت نفسيته، ما أكثر هؤلاء المساكين، ليس هناك حلٌّ إلا التعاطف مع هؤلاء المرضى، وتقديم المعلومات الصحيحة لهم بأسرع وقت ممكن قبل أن يفقدوا عقولهم».

(2)

آه لــو يـــدري شـــراعٌ مبـحـر
في المنــى مــا طــاف في بــال الـغـريق

(القصيبي)

كان ينتظـره على باب العيادة من يـوم الأربعاء، أدخله على الفور، قبل أن تستهلـك جميع قواه مرةً أخرى مع المرضى الآخرين فلا يبقى له شيء. لم يستطـعْ أن يجلس على كرسيه من القلـق، عيناه جاحظتان، يكاد يسمع نبضات قلبه ، وأنفاسه تتصاعد، وحوله تيارٌ مغناطيسي من القلق.

- «تخرجـتُ حديثـا في كليـة الهندسـة، وتقدمـت إلى إحـدى الأسر المعروفـة خاطبا ابنتهم، ذهبت لعمـل فحص الزواج في مستوصف بجـوار البيت قبل ثلاثة أشهـر. اتصلت بي امرأة مـن المستوصف وقالت احضر في الحال، لابد أن يتحدث معك الطبيب فوراً».

ذهبت مسرعـا، قابلني طبيب متقدم في السن، يبدو أنه متمكن من تخصصـه، بـين شعره خصل من الشعـر الأبيض زادتنـي ثقة بخبرته وتمكنه.

- «وجدنا في دمك فيروس الكبد الوبائي من نوع (ب) . هل أنت تشرب الكحول؟».

- «لا والله».

- «هل لك علاقات جنسية محرمة؟».

- «لا والله».

- «يا ابني، لا تخف صارحني بالحقيقة».

- «والله يا دكتور ما اقتربت من امرأة في حياتي وأنا مقبل على الزواج الآن».

- «هل هناك أحد من أسرتك مصاب بفيروسات الكبد أو تليف الكبد أو أورام الكبد؟».

- «أعوذ بالله، يا دكتور خوفتني والله».

- «أجب عن السؤال».

- «لا أعتقد».

- «احذر أن تخالط أهلك، استعمل ملعقة خاصة وفوطة خاصة ونظف الحمام بعد انتهائك، لا تسبح في مسبح عام..».

- «ليش يا دكتور هو خطير؟».

- «طبعاً خطير، لو لم يكن خطيرا لما استدعيناك إلى هنا بسرعة وأخبرناك الخبر، هذا الفيروس قد يؤدي إلى تليّف الكبد حيث يتحول الكبد إلى ما يشبه الليفة الإسفنجية، وتضعف وظائفه مع الوقت، وقد يظهر الصفار وتتجمع السوائل في البطن، وتتدهور الحالة عادةً إلى غيبوبة الكبد ودوالي المري التي إذا نزفت فإنها تكون مثل ماسورة التى نتفجر وتؤدي عادة إلى الوفاة».

- «والحل يا دكتور؟».

- «الحل في هذه الحالات يكون بزراعة كبد جديدة، والتى لابد أن تكون من متبرع حي أو ميت، وغالبُ الظن أن الكثير من إخوتك يحملون نفس الفيروس وأن أحد والديك عندهم هذا الفيروس».

- «والزواج يا دكتور؟».

- «لا، تريث حتى نعمل فحوصات كاملة، ولا بد لك أن تخبر أهل الزوجة من الآن حتى يعرفوا ما هم مقدمون عليه من البداية وأن ابنتهم معرضة للإصابة بنفس المرض».

يحكي هذا كله بطريقة شبه هستيرية تنطق حركات يده قبل شفاهه وتشارك في التعبير أنفاسه قبل لسانه، وعند ذلك انفجر باكيا

تركه يفرغ ما عنده كاملاً، وأحس أن هناك المزيد

- «ماذا حدث بعد ذلك؟».

- «خرجت من عند هذا الطبيب منهارا تماما، فقدت كل أمل في الحياة، لم أعد أسمع شيئاً أو أرى شيئاً، أحسست أن عقلي يتبخر، أحسست أن الدنيا ضاقت بي، ودخلت سيارتي وانفجرت في نوبة بكاء مجنونة، أفقت منها على حالة من اليأس والقنوط والشعور بانتهاء الحياة. صارحت أخي الأكبر، فارتبك ارتباكا واضحا وحزن حزنا عميقا لكنه تجلّد أمامي»، وقال:

- «لا تخبر أحداً، سنسافر كلانا إلى ألمانيا وسأتبرع لك بالكبد وننهي المسألة من دون علم أحد. والوالد والوالدة إياك أن يعرفا شيئاً، كفاهما هموماً ومشكلات».

- «ولكن... ولكن... يا محمد... قد تكون أنت مصاباً...».

- «من قال هذا الكلام؟».

- «الطبيب أكد لي ذلك».

- «لا حول ولا قوة إلا بالله، إذن سنجد لك متبرعا آخر».

- «لابد لك أن تحلل يا محمد لا بد، أمي لا تستطيع أن تتحمل فقد ولديها معاً!».

وبعد يومين، جاءني محمد يبكي:

- «لقد وجدوا الفيروس في دمي كذلك، الله المستعان، ماذا نفعل الآن؟ ربما هذا الطبيب هول الأمور وأن المرض ليس بهذه الخطورة».

- «يا أخي هذا دكتور متخصص، ثم أني لم أكتفِ بكلامه، لقد قرأت في الإنترنت، وتبين لي أن كل ما قاله الدكتور صحيح، المسألة خطيرة جداً، أنا لم أنم منذ تلك الليلة. كل ما في ذهني الآن أن أتخلص من هذا الزواج وأذهب إلى مكة وأعتكف في الحرم حتى يقضي الله أمرا كان مفعولاً، بعدها ذهبت إلى والد زوجتي وصارحته بالأمر وطلبت منه ألا يخبر أحدا وبالذات والدي ووالدتي».

- فاجأني والد زوجتي: «لا تقلق، الأمر بسيط أقترح عليك أن تذهب إلى طبيب متخصص في أمراض الكبد وتعرض عليه الأمر أولاً».

- «ولكنـي تأكدت من جميع المعلومات التى قالها لي الطبيب الأول من الإنترنـت، كلامـه كله موجود ومفصل يا عمي، ثـم إنه طبيب ولن يقول كلاما من راسه».

- «علـى أيّة حال، أنـا لن أتصرف قبل أن نتأكـد من الموضوع ونعرف أبعاده، ربما تكون نتيجة التحليل خاطئة يابني لا تستعجل».

- «يا عمي، يا عمي، أنا خريج هندسة ولست طالب ثانوي، لقد أعدت التحليـل في أكثر من ثـلاث مستوصفـات وكلهم أجمعـوا على أني مصاب بالمرض، الأمر مؤكد!».

- «قلت لك، أنا لن أخبر ابنتى ولن أتصرف حتى تراجع طبيباً مختصاً».

«شعـرت في تلك اللحظة أن عمي يريد أن يـزوج ابنته على كل حال ولا يريد أن يخسر الخاطب!».

عشت أسوأ أسبوعين في حياتي، والله لم أتلذذ بطعم أكل أو شرب، ولم أنم إلا لمـا، وأكاد أجن من فرط التوتر والقلق. لاحظ كل من حولي ذلك، وأخـذت أمي تقلـق على حالي وأنـا لا أصارح أحداً بشـيء، وبدأت مشوار المشايـخ، فبدأت بإمام المسجد الذي بجوارنا الذي اعتذر عن القراءة علي لأنه غير متخصص في القراءة وأرشدني إلى قارئ في أقصى أقاصي الرياض الـذي قرأ علي جزاه الله خـيراً دون أجر، وأكد لي أنهـا عين قوية وتخرج إن شـاء الله مع القـراءة، وكان لطيفاً معي جداً وأرشـدني إلى الاستمرار في القـراءة شهراً مع الإكثار من العسل والحبـة السوداء، ولكن القلق كان يتزايـد يوماً بعد يـوم، وانتقلت بعده إلى قراء كُـثر في الرياض وخارجها. وكنـت أشعر بعد القـراءة براحة عجيبة ولكن سرعان مـا كان يعود القلق

مـرةً أخرى بعد أن أعيـد التحليل وأجد أنه مازال موجبـاً، وقابلت نماذج عجيبـة من القـراء، بعضهم اشترط علي ألف ريال لـكلِّ جلسة، وبعضهم لا يشـترط ولكـن إذا لم تعطـه لا يهتم بـك في الجلسة القادمـة، وأغلبهم كان لا يشـترط مـالا، وأحدهم كاد يقتلني من الخنـق ليخرجَ الجني الذي نقـل لي الفيروس، وقد اختلفـت رواياتهم بين عين وسحـر ومس، وسألت أحدهم ذات مرة : كيف تعرف أن في عين فذكر لي أنه كان يشعر بتعب في جسمه بعد أن يقرأ علي، وأن هذه دليل على وجود العين والله أعلم ، ولكن حالتـي النفسية أخذت تتدهور يومياً، بلغت حالتـي من السوء أنني صرت أكلـم نفسي حقيقة، وعندها قررت أن أعـود إلى العمل. وبعد أسبوعين في العمـل، جاء ذكر أمراض الكبد على لسان أحـد الموظفين، وقال أن قريبه يعـاني من فشل في الكبـد بسبب فيروس الكبد، ووجـدت نفسي أخرج من المكتـب مسرعاً لأننـي أحسست باختناق شديد، خرجـت إلى خارج المبنى وأخـذت أبكي بشـكل عجيب. هذا دليل واقعي عملـي على خطورة المرض، يارب الطف بي.

وفي اليوم التالي، أخذت زميلي الذي كان يتحدث عن مرض الكبد جانبا، وأخـذ يحدثنـي عن أخيه الذي يعـاني من فشل كامل في الكبـد وعمره ثلاث وثلاثـون سنـة، وأنهم قالوا لهم لا بـد أن تجدوا له كبـداً، أو قد يموت في أي لحظـة أو يتحـول المرض إلى سرطـان، وأوراقه مـا زالت في اللجنـة الطبية للزراعة في الخارج حيث إن المستشفيات المحلية قالوا: ما عندنا كبد من نفس فصيلة دمه.

عـدت إلى البيـت وقد تيقنـت من الموت، وبـدأت أحـس أن النهاية قد اقتربـت، وبـدأت أحس بآلام غريبة في بطني، فجريـت نحو المرآة ونظرت في عيني فإذا بها وكأنها صفراء، لا هي صفراء يقينا!

هنـا اتصلت بأخي، ويداي ترتجفان، اقترح أن نذهب إلى الإسعاف في المستشفى، انتظرنا نحو خمس ساعات في الإسعاف ثم جاءت الممرضة وقالت إن هذه حالة ليست إسعافية وقد أعطيناك موعدا مع استشاري الكبد بعد سبعة أشهر، كدت أفقد عقلي. كيف لا تكون حالةً إسعافية وعندي فشل في الكبد؟ كيف لا تدخلوني وهناك حالات أقل مني خطورة بكثير دخلت أمامي، لماذا لم تخبروني بدل من أن أنتظر هذه الساعات الطويلة، أريد أن أتحدث إلى مدير المستشفى المناوب، ثم تذكرت أنني أريد أن أبق الأمر سراً وأنني لا أريد أن يعرف أحداً.

ألمانيا.. ألمانيا... لم يعد هناك حل آخر. لا بد أن أذهب إلى ألمانياً.

(3)

تريدين لون حنيني إليك
إذن لامسي بيديك اللهيب

(القصيبي)

«عدت إلى المنزل وأحسست بشيء من الراحة حيث سأذهب إلى ألمانيا ولن أعود إلا على أحد حالين: إما أن أكون زرعْتُ كبداً جديدة أو محمولاً على الأكتاف لأدفن في الرياض حيث دفن أجدادي، ذهبت مرة أخرى إلى الإنترنت وأخذت أقرأ كل ما وجدت عن زراعة الكبد. واجهتني مشكلة، من أين لي بالتكاليف الباهظة وكيف لي أن أتقدم للحصول على منحة علاجية، عندها قررت أن أسافر إلى ألمانيا على حسابي أول الأمر ثم أتصلُ بوالدي من هناك وأضعه أمام الأمر الواقع وأخبره بكل القصة وأنا

متأكد من أنه سيدفع جميع التكاليف، هنا أحسست بشيء من الراحة لأنه على الأقل أصبح لدي خطة واضحة.

مرت أيام ثلاثة وأنا في هدوء نفسي عجيب، وقد توكلت على الله في أمر الزراعة، وبدأت في صلاة الاستخارة واشتريت تذكرة السفر إلى ألمانيا.

في الرياض، وأنا أشاهد إحدى القنوات الفضائية لفت نظري طبيب وباحث علمي متخصص في الطب البديل، بهرني بغزارة علمه وقدرته الفائقة على علاج الكثير من الأمراض. كان يتحدث بثقة كبيرة ويبدو عليه الخبرة والتدين. وأكثر ما أعجبني فيه أن معظم ما يذكرُ مدعمٌ بالأبحاث العلمية، ونوقش في مؤتمرات عالمية كثيرة دعي إليها هذا العالم، وهذا أمر مهم لأنني جامعي ومثقف ولا أريد أن أقع في حبائل النصابين خاصة في مرض خطير مثل الكبد. أه، كلما أذكر كلمة كبد أشعر بالألم الشديد في الجهة اليسرى من أعلى البطن حيث الطحال الذي يتضخم عادةً مع أمراض الكبد كما تعرف يا دكتور، والشيء الآخر الذي أعجبني فيه أنه يعالج بالأعشاب ولا يستخدم أي موادَّ كيمياوية قد تسبب أضراراً على المدى البعيد، فما الفائدة من أن يتخلص الإنسان من مشكلة ويوقع نفسه في مشكلة أكبر منها بعد عشر سنين.

حاولت أن أكلم هذا الطبيب على الهواء من خلال القناة الفضائية أثناء برنامجه الأسبوعي، ولكن الخط كان مشغولا فأخذت رقمه وحاولت الاتصال بعيادته في إحدى الدول المجاورة، ولكني لم أستطع التحدث معه وأعطوني موعدا بعد عشرة أيام، ظننت أن الدكتور مسافر أو مريض،

فقالوا: إن الدكتور يعمل عشرين ساعة في اليوم، ولكنه مشغول جداً بسبب العدد الهائل من المراجعين، واطمأنت نفسي له أكثر بسبب كثرة عدد المراجعين، وقلت: لو لم يكن منه نفع لما أقبل عليه الناس هكذا، وهدأت نفسي أكثر، حيث إن عندي الآن خطتان لمواجهة هذه المصيبة، هذا الدكتور أولاً، ثم الزراعة في ألمانيا، يا رب يسر لي أحد الأمرين عاجلاً.

وانتظرت الأيام العشرة على أحر من الجمر، واتصلت بالدكتور، فإذا به إنسان لطيف ومريح جداً، قال لي إن الموضوع بسيط وأنه يستطيع أن يعالج الأمر مهما كانت خطورة المرض، ولكن لابد أولا من التخلص من الفيروس، ثم يتحسن التليف بنفسه بإذن الله، وشرح لي طريقة استخدام العلاج والجرعات وحولني على السكرتير الذي أعطاني معلومات تحويل تكاليف العلاج إلى حساب العيادة، وأخذ منى عنوان المنزل وطلب مني أن أُرسل له سند التحويل بالفاكس، وبمجرد وصول هذا السند إليهم سيرسلوا لي الدواء بالبريد السريع. وفوجئت بأن العلاج يكلف ثمانية آلاف ريال تقريبا ولكن والله يادكتور، ما فكرت فيها وحولت النقود في نفس اليوم وأنا في قمة السعادة والارتياح. وفعلا، وصلتني الأدوية بعد يومين من إرسال الفاكس، وكانت عبارة عن قوارير وزيوت معينة مع ورقة تبين بوضوح طريقة الاستعمال ومدة العلاج، وأنني قد أحتاج إلى تكرار العلاج مرتين أو ثلاثة قبل ظهور النتائج. وبعد ثلاثة أيام من العلاج شعرت بتحسن واضح، حيث اختفت آلام البطن وبدأت أشعر بنشاط كبير. ذهبت صبيحة اليوم التالي إلى المستوصف وأعدت تحليل الفيروس وكنت متفائلا جداً بأنه سيكون سالباً. ولكني صدمت بأنه موجب، ولكني لم أغتم كثيراً لأن الطبيب قال لي إن العلاج قد يحتاج إلى فترة طويلة، وبسبب التحسن

الواضح في الأعراض، أجلت رحلة ألمانيا حيث إنني حصلت على تأشيرة صالحة لمدة ثلاثة أشهر ويمكنني الذهاب إذا لم تتحسن الحالة. وبعد شهر أعدت التحليل ولكنه بقي موجبا فأعدته مرة أخرى في مستشفى كبير وكان موجبا كذلك، عندها اتصلت بالدكتور وأخذت موعدا بعد ثلاثة اسابيع لمحادثته حيث أنه يعطى الأولوية للمرضى الجدد الذين لا يأخذون أي علاج حتى لا يتضرروا من الانتظار، وفعلا تحدثت معه بعد شهر وقال لي بنبرة واثقة: «لا تخف، يبدو أن الفيروس الذي لديك من النوع المستعصي وقد يكون من الفصيلة الصينية، هل سافرت إلى الصين في حياتك؟»، فقلت: كلا، قال: على أية حال، أنتم في السعودية تستوردون بضائع كثيرة من الصين فالله أعلم، لا بد أن ننتقل إلى المرحلة الثانية من العلاج وهي مكثّفة أكثر من المرحلة الأولى ولكنَّ ميزتها أنه ليس لها أي مضاعفات جانبية تذكر، كما أنها مثل الأولى ليست كيمياوية، وحولني كالعادة إلى السكرتير الذي طلب منى هذه المرة أربعة عشر ألف ريال، فدفعت وبدأت في المرحلة المكثفة، وبعد شهر تقريباً بدأت أشعر بالأعراض القديمة تعود فحللت الفيروس ووجدته لا يزال موجوداً وتيقنت عندها أنه من النوع الصيني كما تنبأ الدكتور وبدأت أقلق من جديد، وعزمت على السفر إلى ألمانيا للزراعة.

- في صباح اليوم التالي، تحدثت مع زميلي الذي أصيب أخوه بالتليّف عن رغبتى في أخذ إجازة مفتوحة للذهاب إلى ألمانيا للعلاج وسألته عن المركز الذي ينصحني به لأنني لا أعرف إلى أين أذهب. وفي اليوم التالي، قال لي إنه سأل أخاه فقال له: إنه لا يعرف كذلك، حيث إن معاملته لا تزال عند لجنة متخصصة في وزارة الصحة وهي التى توجه إلى المراكز الطبية

داخـل أو خارج المملكة حسب الحالة ، ولكنـه اقترح علي أن أسأل الطبيب الذي أخبرني بالمرض أول مرة فلربما يعرف هو. وفعلا ذهبت إلى الطبيب ولكـن للأسف لم أجـد عنده أي معلومـات عن هذا الأمر ولكنـه أكد على ضـرورة عدم أخذ أي أدوية مطلقا وخاصـة البانادول والمضادات الحيوية لأنها تضر الكبد وقال: أعانك الله!

عـدت إلى صديقي وقد احـترت فعلاً، ولم أعرف كيـف أتصرف، هل مـن المعقول أن أذهب إلى ألمانيا وأدخل إلى أي مستشفى، كيف إذا لم يكن لديهم متخصص في الكبد؟ أحسست أنني في حالة ضياع كامل، أتعلق بأي أمل، وأنتظر من الله الفرج.

وفي تلـك الليلـة التي مرت علي وقـد لف الهم والغـم كل أنحاء نفسي، مـر بي أخي محمد، وأخذ يواسيني ويخفف عني، وقال لي إنه لا يشكو من أي أعراضـ وأنـه يشعر بصحة جيدة، فقلت لـه: ربما لأن الحالة لم تصل عندك إلى مرحلة التليف مثلي. قال لي بصوت متشنج:

- «أنـت تتوهـم، من قال لـك إن عندك تليف؟ كيـف تشخص نفسك وتبني قراراتك على أوهام!».

«مسكـين محمد، يحاول أن يخفف عنـي ولا يدري أنه سيواجه نفس مصيري».

في اليوم التالي، اقترح علي زميلي في العمل أن أذهب إلى الطبيب الذي أخـذت منـه موعداً بعـد سبعة أشهـر وأسأله، لا بد أنه يعـرف المراكز في ألمانيـا وقد يعطيني بعض الأدوية المقوية للكبد أو المسكنة للتليف إلى ذلك الحين. ولكن كيف لي بمقابلته وليس لدي موعد؟» قال صديقي:

- «يـا أخي كما تدخل علـى أي مسؤول، قف عند البـاب وعندما يأتي كلمه،. يعني ما شـاء الله عليك، ألست متعودا على هذا في الدوائر الحكوميـة وعنـد موظفي الخطوط، وعند مسجـل الكلية؟ الصحة تستاهل شيئا من التذلل».

أعجبتني الفكرة في البداية وقررت أن أذهب في اليوم التالي.

وفعلا ، أوقفت السيارة في مواقف المستشفى المكتظة، وما إن اقتربت من المستشفـى حتى أصابتني قشعريرة غريبة ، وانتفض جسمي، وبدأت دقات قلبـي تتسارع بشكل رهيب، وسمعت أصواتا عالية غريبة تجلجل في عقلي: سرطـان، تليف، زراعة ... وأحسسـت بالدنيا تدور وأنني أكاد أسقط على الأرض، فرجعت بسرعـة إلى السيارة وقدتها بسرعة بعيداً عن المستشفى ولمحـت مطعما للفطائر علـى الطريق فدخلت مسرعـا ورميت نفسي على أحـد الكراسـي، وبعـد أن تناولـت فطيرة بالجـبن مع عصـير (كوكتيل) شعـرت بشيء من الراحة، واستغربت، لم يكـن مما قرأت في الإنترنت أن تليـف الكبد يسبـب هذه الأعراض الغريبـة ولكن لا بـد أن أراجعها الليلة ثانية، خطر ببالي أن أعودَ إلى المستشفى ولكن لم أجرؤ، ذهبت إلى البيت وفتحـت الإنترنـت ولم أجد أن تليف الكبد يـؤدي إلى هذه الأعراض إلا في حالـة وجـود نزف شديد من دوالي المريء، ولكنـي لم أر أيّ دم، هل يمكن أن يكـون النزف داخليا؟ ولكنى أشعر أنني أحسن الآن، اخز الشيطان ونم قليلا وتوكل على الله.

حاولـت مقابلتـك في المستشفى من اليوم التالي ولكـن نفس الأعراض كانـت تعاودني كلمـا اقتربت من المستشفى، وحزنـت لذلك كثيرا. ها هي

الطـرق تسد أمامي مـن جديد، وفي الطريق إلى العمـل تذكرت أن الشيخ الـذي قرأ علي قبل أشهر قال إنني أعـاني من عين قوية، فذهبت إليه بعد صـلاة العصر وسألتـه عن هذه الأعراض الجديـدة، فابتسم لي ابتسامة صادقة وقال : أنت محبوس عن المستشفى لابد أن تستمر بالقراءة وتتوكل على الله.

بقـي أقـل من شهر على موعـد انتهاء تأشـيرة ألمانيـا، الوقت ليس في صالحي، ماذا أفعل يا ربي؟ ليس عندي إلا خياران، إما أن أتجلد وأحاول أن أقابلك بأي طريقة أو أن أذهب إلى ألمانيا وأبحث بنفسي عن مستشفى.

(4)

حملت إليك حرمان الصحاري
فكيف أحلته ريا وخصبا؟

(القصيبي)

صليـت ركعتين ودعوت الله مـن قلبي وملحُ الدمـوع في حلقي، ورجوته أن يفـك كربتي، وييسر أمـري، وقرأت الأوراد الشرعيـة والأذكار وتوكلت علـى الله وذهبت إلى المستشفى، على بعد أمتار من المستشفى بدأت أشعر باختنـاق خفيـف وتسارعٍ في ضربات القلب، ولكنـي دخلت، لا أعرف كيف ولكنـي دخلـت، سألت عن عيادتـك، فقالـوا: في الدور الأول عيـادة (3)، اقتربـت من العيـادة وشعـرت بخفقان شديـد ودوار مخيـف، فتماسكت وقـرأت الأذكار وجلست في قاعـة الانتظار حتى هـدأت الأعراض، سألت موظف الاستقبال فلم يرد علي وبعد محاولات متعددة أجابني من دون أن ينظر إلي:

- أين ورقة الموعد؟

- موعدي بعد خمسة أشهر، أريد فقط أن أقابل الدكتور.

- كل هؤلاء يريدون أن يقابلوا الدكتور وقد انتظروا ستة أشهروأكثر.

- «أريد أن أسأله سؤالا محدداً يستغرق أقل من دقيقة أرجوك، لم يعد الموظف يرد علي مطلقاً، وكأنني قد اختفيت من خريطته الرادارية. قلت ليس لي إلا أن أنتظر عند الباب مثل السائلين، وكم كانت صدمتي كبيرة عندما اعتذرت عن مقابلتي البارحة يا دكتور، فلم أكن متأكداً إذا كنت سأستطيع أن آتي اليوم أم لا ، ولكن ولله الحمد كانت الأعراض أخف بكثير اليوم».

نظر إلى جبهته الشابة الفتية، فإذا العرق يتصفد منها، وإلى نظرات عينيه فإذا العينان تتوثبان للقفز من محاجرهما، ثم ما لبث أن ملأ الكرسي بجسمه واسترخى قليلاً، وأخذ يبكي في حرقة دون صوت ونظراته على الأرض. بادره:

- «كيف تشعر الآن؟».

- «أشعر أنني فرغت حِمْلاً ثقيلاً من صدري، أشعر وكأنني أخف وزنا، أشعر أنني أطير في الهواء. أشكرك لأنك استمعت إلي، كم كنت محتاجا إلى ذلك. هل لك أن تكتب لي اسم المركز الذي تنصحتنى به في ألمانيا أو أي مكان آخر غير ألمانيا، ولو تساعدني بتقرير عن الحالة أكون لك شاكرا داعيا، أنا أعرف أن عندك مرضى كثيرين غيري وقد أخذت من وقتك الكثير».

قال ولم يعرف من أين يبدأ :

- «لـن تخـرج من هذه العيـادة إلا وقد انشرح صـدرك وزال همك وغمـك وارتاحـت نفسك بـإذن الله، أبشر بالخـير، الأمر أهون بكثير مما تتصور».

رسم له نجمة رباعية في الورقة التى أمامي، قال:

- «ماذا ترى؟».

- «نجمة!».

- «هل هي كبيرة؟».

- «لا».

- «والآن بعـد أن وضعتهـا أمـام عينيـك وألصقتهـا إلى وجهك كيف تراها؟ هل هي كبيرة؟».

- «نعم كبيرة جداً».

- «هل تحجب عنك الرؤية؟».

- «بالضبط، لا أرى شيئا آخر».

- «يـا أخـي الحبيب، والله لولا أنـك تحكي لي قصتك هـذه وأنفاسك حـرّى، وعينـاك جاحظتان، ورائحـة الصدق تفوح مـن كل كلمة لما صدقتـك، إنَّ هذه قصـةً أقـرب إلى الخيال. لقـد تضافرت عليك المعلومـات المغلوطة، والحقائق المضخمة، والدجـل الواضح، والقلق

النفسي، والتضليل الإعلامي، وشلل النظام الصحي، ولو كانت واحدة لكفتك، فكيف وقد اجتمعت عليك كلها. اسمعني بدقة، هذا الفيروس الذي عندك فيروس منتشر جدا في كل أنحاء العالم، يحمله أكثر من 350 مليون إنسان.

- «350 مليون!».

- «نعم».

- «أهم معلومة لابد لك أن تعرفها عن هذا الفيروس أنه لا يسبب أي مشكلة في الكبد أو الجسم مطلقا في الغالبية العظمى من الناس، وتقدر نسبة الإصابة بالمضاعفات وأهمها تليف الكبد بما لا يزيد عن عشرين بالمئة، أي إن ثمانين بالمئة من المصابين بالفيروس يعيشون حياة طبيعيةً تماما ولا يعانون من أي مشاكل مستقبلية مطلقاً».

نظرة استغراب، وتنفس عميق.

- «ولكن!».

- «لا تقاطعني أرجوك، فقد استمعت إليك أكثر من نصف ساعة الآن. هذه الحقائق العلمية الثابتة وليست رأيي الشخصي. نحتاج إلى عمل بعض الفحوصات والتحاليل وأشعة صوتية للكبد وعلى الأرجح سيتبين أنك حامل للفيروس فقط، وليس لديك التهاب في الكبد أصلاً، وفي هذه الحالة لا يمثل لك الفيروس خطورة تذكر وتحتاج فقط إلى المتابعة كل ستة أشهر. وحتى إن ثبت أن هناك علامات التهاب في الكبد فعلى الأرجح أنه سيكون بسيطاً وسنتمكن من

التحكم فيه بالأدوية الفعالة المتوفرة الآن ولله الحمد. وليس لديك مبدئياً أي شيء يدل على وجود تليف في الكبد ولا تحتاج إلى زراعة أبداً. انسَ هذا الموضوع».

نفسٌ أعمق، بدأت عيناه تعودان إلى مخادعهما، وابتسامة بدأت تكبرُ خلف ركام كثيف من القلق والخوف على وجهه.

- «الفيروس ينتقل أساساً بالدم أو الاتصال الجنسي، وانتقاله بالطرق الأخرى قليلٌ جداً، وبالتالي يمكنك أن تعامل أهلك في بيتك بطريقة طبيعية وأن تأكل ما تشاء وتشرب ما تشاء، لا تحتاج إلى أن يكون لديك أوانٍ خاصة أو حمام خاص، يفضل فقط أن يكون لديك أدوات صحية خاصة (مثل الموسى وأدوات الحلاقة وفرشاة الأسنان وجهاز تقليم الأظافر) وإذا حدث نزف منك فلابد أن تنتبه ألا يتعرض الآخرون لدمك. وأما غير ذلك، فأرجو أن تعيش حياتك بشكل طبيعي».

- «والزواج يا دكتور؟».

- «سأكون أول المهنئين إذا دعوتني، كل ما في الأمر أن زوجة المستقبل وأهلها لابد أن يعرفوا بالأمر، ومن ثم تأخذ الزوجة اللقاح الواقي بإذن الله من انتقال الفيروس وهو متوفر في كل مكان، وبعد التأكد من وجود الأجسام المضادة للفيروس والتي تعني تكوّن المناعة، بإمكانك أن تمارس حياتك الزوجية بشكل طبيعي من غير أي خطورة على زوجتك بإذن الله، أدرك والد زوجتك يا رجل لربما زوجها لغيرك فإنها تبدو فيما فهمت منك أسرة طيبة ووالدها متفهم ومتعاون».

- «والزراعة يا دكتور؟».

- «تحتاج فقط إلى زراعة شيء من الفل والورد في حديقة منزلك. زراعة الكبد يحتاجها فقط الذين عندهم تليّف متقدم، وقد فشلت معهم الأدوية وأنت فقط حامل للفيروس كما يبدو وليس عندك أي علامات للتليف واحتمال حدوث ذلك في المستقبل ضعيف بإذن الله».

- «دكتور، أنا خريج كلية هندسة ولا تجدي معي هذه التطمينات، أرجوك واجهني بالحقيقة».

- «والله هذه هي الحقيقة، نحتاج إلى عمل بعض التحاليل كما ذكرت لك حتى أستطيع أن أتعرف على مرضك بشكل أكبر، وأحدد إذا كنت تحتاج إلى المتابعة فقط فيما إذ كنت حاملا للفيروس فقط أو إلى العلاج إذا كنت مصاباً بالتهاب فعلي في الكبد. لا تفكر في زراعة الكبد أبداً».

أخذ يعدّ له نماذج التحاليل والأشعة وشعر به أخف حِمْلاً، وألطف نفسا ولكنه أحس بوميض الشك يشع بين قسماته.

- «دكتور: ماذا عن الأعشاب؟».

- «أنا لست خبيرا بالأعشاب، أنا خبير بالطب الحديث المجرب الذي أتحمل مسؤوليته، والذي سوف يعالجك به الطبيب في أمريكا واليابان وألمانيا وفي كل مكان، الطب الذي فنيت من أجله الأعمار وعقدت له المؤتمرات الكبار وأنشأت له مراكز الأبحاث المعترف

بهـا. أنا لا أتحدث عن أحد، ولا أمنـع أحدا من أن يفعل بجسمه ما يشاء، أنت شاب مثقف وتعرف مصلحتك فافعل ما تقتنع به؟».

- «دكتور أنا أريد رأيك الشخصي».

- «رأي الشخصـي أن تجتنب هذه العيادات الوهمية والأطباء المدعين وتلتـزم بتعليمـات الطبيب المتخصـص الثقة، هـذه الأعشاب التي يروج لها الكثير من المضللين لا تستند إلى أي دليل علمي، وليس لها أي فعالية ثابتة في الأمراض التي توصف لها والغالبية العظمى منها إدعـاءات لم تثبت أبدا، ثم إن بعضاً منها بسبب أضرار كبيرة وقد سُجلت حالات وفيات كثيرة بسبب بعض هذه الأعشاب».

- «والقراءة؟».

- «يـا أخي الحبيـب القرآن فيه شفـاء إن شاء الله وكلـه بركه، والله تعـالى يقـول : «وننزل من القـرآن ما هو شفاء ورحمـة للمؤمنين». أوصيـك أن ترقـي نفسـك وتحافـظ علـى أذكار الصبـاح والمساء وتواظب على الرقية الشرعية، ولا بأس من أن يرقيك أحد إخوتك، أو مـن تثق بصلاحـه واستقامته. ولكن الله تعـالى الذي أنزل هذا القـرآن هو الـذي أمر نبيه صلـى الله عليه وسلم أن يقـول لنا: «يا عبـاد الله تـداووا فإن الله ما أنـزل داءً إلا أنزل لـه دواء». وأفضل مكان للحصول على هذا الدواء هو الطبيب المتخصص الثقة الذي آتـاه الله العلم بالداء والدواء والـذي صرحت له الجهات المختصة بممارسة الطب».

- «لا أعـرف كيف أشكرك، أشعر أننـي خرجت من نفق مظلم، أشعر بأن النهار قد أشرق بعد غياهب الظلمة، لا أعرف كيف أشكرك».

- «لكني أنا أعرف. أريدك أن تدعولي أولا، ثم تهتم بصحتك وعملك وأن نتشأ أسرة صالحة. إذا فعلت ذلك فقد شكرتني».

- «شكراً دكتور والله شكراً».

ومـا إن خرج رفع الطبيب نظره إلى السقف يتأمل هذه التجربة المثيرة واستعد لبدء عيادة جديدة، ولكنه عاد.

- «دكتـور: نسيت أسألك، والأعراض التي كانـت تأتيني كلما اقتربت من المستشفى، أتتوقع أنها نفسية؟».

- «هـي نفسيـة، عندما تأتـي في الموعد القادم سنتحـدث حولها وإذا لم تتحسـن سأحولك إلى الطبيـب النفسي وعلاجها بين يديه سهل بإذن الله».

يشعـر الآن أنه قـد انتهى من عيادة كاملة، ولكـن الممرضة أعادته إلى الواقع ، دكتور عندنا 18 مريض اليوم وقد تأخرنا عن المريض الأول.

- توكلنا على الله، نادي على المريض الأول...

«يتعلم الإنسان فن اتخاذ القرارات الصائبة
من الخبرة ويكتسب الإنسان الخبرة
من اتخاذ القرارات الخاطئة»

(حكمة صينية)

بين يأس..ورجاء..وظنون

(1)

وتــــولـــوا بـغـصــة كـلـهـم مـنـه
وإن ســــر بـعـضـهـم أحـيـانـا
(المتنبي)

دخلت العيادة على غير عادتها مكتئبة، سلّمت باقتضاب حتى إنه لم يعرفها. فتح الملف فإذا نورة.

- «نورة: كيف حالك؟ كيف أنت الآن؟».

- «الحمد لله، كله خير».

- «لا يا نورة، في شيء غير طبيعي اليوم شكلك زعلانه؟».

- «الحمد لله على كل حال».

نورة إحدى مريضاته منذ فترة طويلة، مصابة بضَعف في عضلة القلب أدى إلى فشل شبه كامل في وظائف القلب. عمرها سبع وعشرون سنة. رآها أول مرة قبل خمس سنوات، وكانت في حالة نفسية سيئة، لم تكن تعرف مرضها ولم تكن تعرف ما ينتظرها.

ومع مرور الوقت، بدأ يتعرف على قصتها عن كثب. أبوها رجل صالح من المنطقة الجنوبية، كان يأتي معها سابقاً يرافقها في مواعيد الزيارات، تكلم معه بصراحة، وشرح له وضع نورة بالتفصيل، وذكر له جميع الاحتياطات الطبية التي ينبغي لها أن تتخذها.

بعد هذه الزيارة، انقطعت نورة عن المتابعة ستة أشهر، كلما جاء دورها في العيادة ومر به ملفها الطبي ويرى أنها لم تأت يشعر بغصة في قلبه، هل حدث لها مكروه؟ هل انزعج الأب من كلامي معه في الموعد السابق وقرر أن يأخذها إلى طبيب آخر؟ هل فقد الأمل وقرر أن يبقيها في البيت؟ أسئلة كثيرة تطرق قلبه بشدة وتزعجه أيما إزعاج. إن الذي يمارس الطب في بلادنا لابد أن يتوقع كل شيء، كل شيء..

وفي هذه الأثناء، دارت في ذهنه عواصف من الأفكار حول طريقة تحدثنا مع المرضى. هل كنت قاسيا أكثر من اللازم؟ هل كان علي أن أخفي بعض الحقائق؟ هل درست شخصية الأب بشكل كافٍ قبل أن أخبره بهذه الحقائق المزعجة؟

وسمع في رأسه صدى كلام أستاذه الكندي الدكتور تومسون الذي كان يردد دائماً «الكلام مع المريض علم وفن، يحتاج إلى الكثير من الخبرة والمهارة؛ ولذلك يتفاوت الأطباء فيه. عليك أولا أن تتفهم المريض وعائلته، ما مستوى التعليم عندهم؟ كيف ترابطهم في الأسرة؟ هل هم من النوع القلق؟ هل هم من النوع الذي يُحب التفاصيل؟ وبعد جَمْع أكبر قدر من المعلومات عمن أمامك، تفصّل له جرعَة المعلومات التي تعطيه إياها وطريقة إعطاء المعلومات وكأنك تكتب له جرعة الدواء الذي تعطيه وطريقة إعطائه».

يالله، لو أتيت تمارس الطب عندنا يا دكتور تومسون لعرفت أن كلامك صعب التطبيق جداً، كيف يمكن أن نطبق هذه الطريقة ونحن نعاين ثلاثين مريضا في العيادة الواحدة؟ كيف يمكن أن نطبق هذه الطرق

ومعظمنا لم يتدرب أصلاً عليها ولم يسمع بها قط؟ كيف يمكن أن نطبق هذه الأساليب ومجتمعنا عادةً لا يفتح للطبيب قلبه ويتكتم على الكثير من أسراره وخصوصياته خاصةً عندما يكون المريض أنثى؟ تحديات كثيرة يا دكتور تومسون، تحديات كثيرة..

(2)

أخفيت عن كل العيون مواجعي
فأنا الشقي على السعادة أُحسد
(القصيبي)

ونسي نورة فترة من الزمن، وبعد مرور سنة تقريباً ذكر له الطبيب المقيم الذي يعمل معه أن هناك مريضة طلبوا منهم أن يعاينوها في جناح النساء والولادة وهي حالة امرأة عمرها سبع وعشرون عاماً، حامل في الشهر السادس وتعاني من فشل في القلب. وذهبا ليعاينا المريضة. ناقش الحالة مع الطبيب المقيم ودخلا إلى الغرفة ليتكلما مع المريضة ويشرحا لها حالتها. وبعد أن تحدث معها لمدة خمس دقائق قالت: «دكتور: أنا نورة»

- «نورة: أهلا وسهلا أين كنت يا نورة لماذا انقطعت عن المواعيد لقد قلقنا عليك؟».

- «كل شيء على ما يرام، لقد قرر أبي بعد جلسته معك أن أيامي معدودة وأنني لا بد أن أسعد قليلا في هذه الحياة وأنجب ذرية فزوجني بعدها بأسبوع من أحد أصدقائه، وكان زوجي يرفض أن آتي إلى المستشفى».

- «أحد صدقائه؟»

قالها مستنكراً، وما لبث أن تذكر الحدود الاجتماعية فورا وقال: «مبارك إن شاء الله». وطافت بذهنه معانٍ كادت تسقطه على الأرض، لكنّه تمالك نفسه واستنشق شهيقا عميقا (كان غير صحي قطعاً؛ لأن في الغرفة ستُّ مريضات وكل مريضة معها على الأقل مرافقةٌ واحد) وقال لها:

- «على أية حال، الوضع الآن مستقر ولله الحمد من ناحية القلب ولكن أطباء التوليد يريدون أن يبقوك فترة عندهم حتى يطمئنوا على الجنين».

كيف يفعل هذا؟ ياله من جاهل حقا! كيف يزوجها دون أن يسأل عن الأبعاد الطبية لهذه العمل؟ كيف يزوجها من رجل في سن أبيها؟ لابد أن أتحدث معه! ولكن، هل أنا مُصلح اجتماعي حتى أتحدث معه؟ هل من واجبي أن أتدخل في مثل هذه الخصوصيات؟ هل أكون قد تجاوزت خطوطي الحمراء إذا كلمته في موضوعٍ كهذا؟ ولكن للموضوع أبعادٌ طبية. امرأة في مثل هذه الحالة الصحية كان لا يصح أن تحمل ولا أن تتزوج أصلاً. يالله، أكاد أفقد عقلي، إنها حقا أسئلة محيرة وليس لها إجابة واضحة.

جلست نورة في المستشفى أكثر من شهر بسبب عدم استقرار وضع الجنين، وكادت تموت أكثر من مرة ودخلت إلى العناية المركزة مرات، وبعد ذلك وضعت بلطف الله مولودةً أنثى أجمل من فلق الصبح وسار كل شيءٍ على ما يرام ما عدى بعض المضاعفات المتوقعة.

(3)

وكـــــذا تمـضــي حـيــاتــي كـلـهـا

بـــين يـــأســـ ورجـــــــاء وظـــنـــون

(إبراهيم ناجي)

نـورة أمامــه الآن بعد خمسة أشهر من الـولادة وهي مضطربة وعلى غير عادتها.

- «ما الأمر يا نورة؟».

- «الحمد لله يا دكتور متى الموعد القادم؟».

- «نورة، أي موعدٍ قادم الآن طمئنينا عن أخبارك كيف انتفاخ الأقدام وكيفك مع الأدوية والرضاعة؟».

هنــا انفجر بـركان ثائر من الدمــوع والشهيق وراحت نـورة تبكي في حرقة ومرارة.

- «نورة: أذكري الله، ماذا حدث؟».

- «مات زوجي يادكتور!».

- «إنــا لله وإنــا إليه راجعون، رحمه الله، عظـم الله أجرك ورحمه رحمة واسعة».

- «وبعــد يومين من موت زوجي أدخـل والدي المستشفى عندكم بنوبة قلبية! ولكنه في حالة مستقرة ولله الحمد».

- «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اصبري يا نورة واحتسبي وإن شاء الله الأمور كلها تصير إلى خير».

يالله، كم تتحمل هذه الفتاة من المعاناة!

- «هل عندك إخوة كبار يا نورة يعينونك؟».

- «أنا أكبر إخواني من أمي، أبي لديه عشرة أبناء من زوجته الأولى ولكنهم لا يساعدوننا ولا يكلموننا لأن أمي سرقت أبي منهم كما يدعون. أكبر أخوتي من أمي عمره عشرُ سنوات».

- «إذن كيف تعيشون ومن أتى بك إلى الموعد؟».

أحست نورة أنه قد تجاوز الحدود بسؤاله هذا وأحرجها فتململت واستعدت للخروج.

- «متى الموعد القادم يا دكتور؟».

- ألح عليها: «من يعيلكم يا نورة ومن أتى بك إلى الموعد اليوم؟».

- «يعيلنا الله وقد أتيت بليموزين، بالمناسبة الأدوية المدرة للبول انتهت أرجو أن تكتب لي وصفة جديدة».

- «نورة أنا أريد أن أساعدك..».

كتب الوصفة وخرجت نورة من العيادة.

الممرضة تستأذنه للنداء على المريض القادم، لا لا أعطني بعض الوقت.

وضع رأسه على ملف نورة الضخم واستسلم لطوفان من المشاعر والأفكار. ما الذي ورطني في هذه المهنة؟ ألم يكن من الأسهل أن أتعامل مع الأجهزة الكهربائية أو الورق الأخرس، أو المواد الكيمياوية؟ لماذا وضعت نفسي في هذا الموقع حيث أتعامل فيه مع الإنسان في لحظات ضعفه ومعاناته؟ هل أخطأت في شيء عندما تحدثت مع والد نورة؟ هل كان هناك أسلوب أفضل للتعامل معه ومعها؟ ما حدود تدخلي في حياة هذه المريضة الخاصة؟ هل أتحدث مع والدها؟ هل أعرض عليها المساعدة إذا احتاجتها؟ هل أعطيها بعض المال؟ هل كان يمكن أن أتعامل مع الموقف بشكل أفضل مما تعاملت به؟ هل أتعامل مع الجوانب الطبية فقط وأتجاهل تماماً العوامل الاجتماعية، كيف وبينهما تداخل لا ينفك! لو كان عندنا اختصاصية اجتماعية في العيادات لكان هذا من عملها ولتكلمت مع نورة من دون حواجز، أما أنا فقد يفهم تدخلي فهماً سيئاً.

في هذه المهنة الصعبة بحق، أنت تتعامل مع متغيرات كثيرة: معلومات علمية ، حقائق طبية، ظروف اجتماعية، عوائق نفسية، متغيرات يومية. كل منها يدلي بدلوه في العلاقة بين المريض والطبيب ويؤثر فيها سلبا أو إيجابا.

الممرضة تحاول أن تصدر صوتاً ينبهه مما هو فيه، وفجأةً فتح الباب بعنف ودخل رجل ضخم الجثة عظيم البطن شديد الشراسة: يا دكتور، صارلنا ساعة ننتظر وأنت حضرتك نائم!

«ثلث الحكمة فطنة وثلثاها تغافل»

معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

عمي

(1)

تمرست بالآفات حتى تركتها
تقول: أمات الموت، أم ذُعر الذعر

(المتنبي)

خرجنا من شقتي في الرياض بسيارتي متجهين إلى المستشفى الحكومي الكبير الشهير. كنا في ربيع عام 1416 وكان ذلك بعد نحو عام من زواجي بابنة الرجل الذي يجلس إلى جواري والذي آخذه لموعد في المستشفى مريضا. كنت في تلك الأيام طبيبا مقيما قبل أن أذهب إلى الدراسة في كندا ببضعة أشهر.

كان في شبابه رمزاً للصحة والنشاط ، يضرب به المثل في اللياقة البدنية والصحة والقوة. ذكر لي أنه كان يصعد درج العمارة حاملا جوالين من الماء وأكياس المشتريات الثقيلة مرةً واحدة دون أن يشعر بأي تعب. كان يلعب كرة القدم بشكل منتظم دون أي مشاكل.

وكان في عمله رمزاً للهمة والنشاط. أنهى متطلبات درجة (الماجستير) و(الدكتوراه) في أعرق الجامعات الأمريكية في فترة قياسية وعاد كأول متخصص سعودي في الهندسة النووية، وتدرج في المناصب الإدارية إلى أن عُين عميداً لكلية الهندسة بجامعة الملك عبد العزيز بجدة. حاز على وِسَام الملك عبد العزيز من الدرجة الأولى نظرا لحيازته على براءة اختراع من أمريكا.

وكان في أثناء هذه السنين معتمداً على مَعين من الصحة ظن أنه لن ينضب وموفور من العافية حسب أنه لن ينتهي.

وفي سن الأربعين، شخص بمرض السكر ولكنه لم يعبأ به ولم يفكر فيه إلا لماما، وأمضى حياته بالطول والعرض.

«هناك جلطة في القلب...» هكذا بدأت قصة معاناته مع المرض. هذه القصة المؤلمة التى بدأت بجلطة كبيرة في القلب نُوِّم على أثرها في المستشفى، تبعتها عملية قلب مفتوح في أمريكا. كانت العملية نفسها ناجحة، ولكن تبعتها مضاعفات متعددة مثل التهابات في الجرح، جلطة في الدماغ، تدهور كبير في القدرة على المشي والإحساس في الأرجل. قضى بعدها في المستشفى أشهراً طويلة في معاناة مريرة. فقد القدرة على المشي أو كاد. واضطر إلى إجراء عملية أخرى في الصدر للتخفيف من مضاعفات العملية الأولى. وبعد فترة، صارت لديه مضاعفات في الأقدام نتيجة مرض السكر مما أدى إلى التهابات وتقرحات متعددة نوم على إثرها في المستشفى أشهراً عديدة أخرى، واحتاج خلالها إلى عملية بتر للأقدام ولكنه رفض ذلك بشدة وانتهى الأمر إلى عمليات متعددة للأقدام لإزالة الأجزاء التالفة وعمليات تجميلية بعد ذلك. استقرت الحالة قليلا بعد سبع سنوات من المعاناة المستمرة، لكنه أصيب بجلطة في المخ أدت إلى فقدان كامل الحركة في الجزء السفلي من الجسم وضعف شديد في الجزء العلوي. وقد أخذت عملية إعادة التأهيل نحو عامٍ كامل عاد بعدها إلى شيء من الحركة الضعيفة في الأرجل وإلى حركة شبه طبيعية في الأيدي. بعدها بقليل بدأت لديه آلامٌ شديدية في الأذن والرأس تبين بعدها وجود

التهـاب في بعض عُظيمات الأذن الداخلية وانتهى الأمر إلى جرعات عالية ومكثفـة مـن المضادات الحيوية، وبـدأت وظائف الكلـى تضعف مع الوقت بسبب السكر والأدوية والضعف العام وانتهى الأمر إلى فشل كلوي تام وبدأ بعدها الغسيل الكلوي الدموي، كل هذه الأحداث المتلاحقة تمت في غضون عشر سنوات تقريبا والله المستعان.

(2)

يـا أعـز النسـاء جئت حصانا
مثخنـا هـذه السـباق الطويل
كسـرت سـاقـه فـجـن إبـاء
كيـف يحبـو هـذا الجـواد الأصـيـل

(القصيبي)

«عمـك هذا عجيب، زرنـاه بالأمس فإذا به مستبشـر أضحكنا حتى أبكانا ومازحنا حتى ألهانا». كانت مثل هذه العبارات تطرق سمعي كثيرا مـن الأقـارب والأصدقاء الذين كانـوا يزورونـه، وكان بالفعل كذلك، له روح عجيبـة، فاضت بالبشر واليقين، مستسلمة لقضاء الله راضية به، لا تتذمر ولا تتأفف ولا تتشكى من المرض أبدا، لم تمسسها وعثاء المرض، ولا أثرفيها نكد العجز، كأن الابتسامة الصادقة قد حُفرت في وجهه المهيب، وكأن البشـر والسرور قد عُجن بروحه عجناً فـلا يكاد يستطيع أن ينفك عنهما، وأحسب أن ذلك دليلُ رسوخ في الإيمان واليقين، أحسبه كذلك ولا أزكيه على الله، فقد عرف في حياته كلها بالتقوى وحب الخير للناس.

دخلنا إلى المستشفى أدفعه على الكرسي المتحرك، فقد كان لا يستطيع تحريك أطرافه السفلى، وكان لدينا موعدان، موعد مع طبيب الأعصاب وموعد مع طبيب القلب. انتظرنا كالعادة على الأقل ساعة بعد موعدنا المحدد وبدأت أضيق ذرعا فإذا به يقول:

- «يابني: هذا طبيعي، إذا دخلت في موعدك أو بعد نصف ساعة منه فاعلم أن هذا من علامات الساعة، انتظر، فكثر الله خيرهم أنهم يعالجوننا، وهم المشغولون بالأمور العظام والمهام الكبار، أما نحن فماذا ينتظرنا؟ ما المانع أن نتأخر قليلا عن أعمالنا التافهة مقارنة بأعمالهم؟ ما قيمة وقتنا الرخيص في مقابل أوقاتهم الثمينة؟».

ودخلنا على طبيب الأعصاب وكانت أول مرة يعاين فيها عمي، وقد أتينا محّولين من طبيب القلب لمعرفة ما إذا كان هناك أي سبب آخر للضعف في الرجلين غير الجلطة، وهل هناك حل لزيادة قوة الرجلين والإحساس بهما؟ وكان عمي متواضعاً في لبسه وهيئته، يغطي وجهه لحيةٌ بيضاء مهيبة مع ابتسامةٍ مرحة، مما يعطيك الانطباع بأن هذا رجل سبعيني (مع أنه كان في الخمسين في ذلك الوقت) ربما أتى من ضواحي الحجاز، يفك الخط وربما لا، وهو بهذه الصفة مؤهل لأن يكون مريضا مثاليا (للزحلقة)، وهي في لغة الأطباء التخلص من المريض خلال خمس دقائق، فمثل هؤلاء المرضى يعمد الأطباء الذين لا يخافون الله إلى مبادرتهم بالعلاج من دون نقاش أو فحص، وتطييب خواطرهم بكلمة أو كلمتين يخرج بعدها المريض وكأنه لم يدخل، ولكنه بجهله وطيب نفسه يدعو للطبيب ويخرج مجبور الخاطر، ولكن سحنة عمي البسيطة الموهمة كانت تخفي خلفها أستاذا للهندسة النووية، وعميداً سابقا لكلية الهندسة، ورجلا متمرسا في الحياة

والنقاش والجدال وحتى بعض مهارات الاستفزاز والانتقام إذا لزم الأمر وهنا تبدأ المفارقات المضحكة.

ما إن دخلنا حتى وجدنا الطبيب جالسا وقد أعطانا ظهره، سلمنا عليه فلم يرد علينا السلام وقد بدى منهمكا في ملف أمامه، جلسنا مثل تلميذين استدعاهما وكيل المدرسة للعقوبة،وكانت المفاجأة أنه خرج من الغرفة غير آبه بنا، ضحك عمي ضحكة عميقة وكدت أن أجن من فرط الغيظ والتوتر. دخل الاستشاري بعد ربع ساعة أخرى حيانا وجلس ينظر إلى الملف وقال بالحرف الواحد:

- «سبب التنميل والضعف هو السكر ولا بد أن تحاول التحكم في السكر وفي الوزن وإلا فإنك لن تستطيع أن تحرك أقدامك بعد اليوم. على أية حال سنكتب لك بعض الأدوية ونراك بعد ستة أشهر إن شاء الله».

وقام الطبيب يهم بالخروج بعد أن حاول مصافحتنا. مد الطبيب يده لمصافحة عمي، ولكن عمي لم يمد يده!

قال الطبيب:

- «خير يا عم (وأنا أجزم أن الطبيب كان أكبر سنا من عمي)».

- «كل خير إن شاء الله، هل تعلم ما هي شكواي؟».

- «طبعاً، كل شيء مسجل في الملف، هذا يساعدنا على كسب الوقت والتركيز».

- «أنـا لا أعـرف ما هـو مسجل في الملـف، ولكنى أعـرف جيدا ما هو محفـور في نفسي مـن المعاناة، وما هو مسجـل في ذهنى من أسئلة دارت رحاهـا خـلال أربعـة أشهـر أنتظـر فيها الموعد مـع جنابك المهيـب، وبعد أكثر من ساعتـين تأخير حتـى أن موعدنا مع طبيب القلـب قد فات ولكـن لا تحمل هماً فسيتأخر هـو الآخر ولن يفوتنا موعده!».

- «يا عم عبد الرحمن حالتك ليس فيها كلام كثير، الأرجل شبه ميتة ولا أمل فيها وأنا أريدك أن تعرف هذه الحقيقة».

- «قد تكون أرجلي ميتة، ولكن روحي وعقلي ولله الحمد لا يزال فيهما شيء من حياة!».

هنا اعتدل الطبيب في جلسته، ويبدو أنه تبين له أنه قد (زحلق) مريضا لم يكن ينبغي له أن (يزحلقه) وأنه لابد أن يغير (التكنيك) الآن!

- «سأعطيـك بعضـ الأدويـة التى سـوف تخفف عنـك التنميل بإذن الله».

وقـام الطبيـب مؤثـرا السلامـة مـن هـذا المريضـ (الشراني) وانصرف مبتسما.

أكاد أشعـر بالـدم يغلي وهو يجري في عروقـي، وأكاد أسمع فحيحه في عروق عمي ولكنا انتقلنا مستسلمين إلى عيادة القلب.

(3)

غـير أن الـفـتـى يـلاقـي المـنـايـا
كـالحـات ولا يـلاقـي الـهـوانـا

(المتنبي)

صياح ومشادّة كبيرة بين أحد المرضى وبين موظفة الاستقبال. المريض لديه موعـد وقد أتى من (حائل) والملف مفقود، الممرضة تقول من برجها العاجي في منتهى الاحتقار للمريض:

- «لا أستطيع أن أفعل شيئا اذهب إلى قسم كذا».

المريـض يقول: «لا أعرف كيف أذهب، أنا بالكاد وصلت في موعدي إلى عيادتكم تصرفوا أنتم».

- «إذا لم تذهـب وتطلـب الملف حالاً فقد يضيـع عليك الموعد والموعد القادم بعد ستة أشهر».

المريـض المسكـين يـكاد يفقـد عقله. عمي يحمـرُّ وجهـه، يتحدث مع الممرضة بالإنجليزية:

- «هـل هو ذنـب المريض أنكم قد فقدتم ملفـه؟ ماذنب هذا المسكين الـذي أتى من آخر الدنيـا وترك عمله وماله وعيالـه حتى يأتي ؟» قالت بنبرة متأففة:

- «لا ليـس ذنبـه، ولكـن ليس ذنبـي أنا كذلك! أنـا لا أتحمل أخطاء الآخرين».

- «أليس هناك شيء اسمه رحمة ؟».

- «أرجوك لا تتدخل في عملي وتعطيني محاضرات في الرحمة!».

ما كان لنا أن نتوتر على ضياع موعدنا عند طبيب القلب فقد دخلنا عليه بعد أكثر من ساعتين من موعدنا المحدد كالعادة، وكان أكثر وداعةً من طبيب الأعصاب، لكنّه لم يمض مع عمي أكثر من خمس دقائق وأنا الشاهد على ذلك، راجع معه الأدوية فزاد عليها وأنقص منها ووزع ابتسامات مصطنعة، خرجنا من عنده نشعر بالإنجاز الكبير فقد تشرفنا بالسلام على الاستشاري الكبير.

ووقفت في طابور الصيدلية والذي بدى أنه طابور له بداية وليس له نهاية، وتركت عمي على كرسيه يتأمل الورقة التى كتب عليها أسئلته الكثيرة والتي يحب أن يناقشها مع أطبائه، وربما علّل نفسه بأنه ستكون عنده هذه الفرصة في الموعد القادم بعد خمسة أشهر.

- «عفوا، هذان الدواءان غيرُ متوفرين الآن، اتصلوا بنا بعد شهر ربما تكون متوفرة».

(4)

لا تلق دهرك إلا غيّر مكترث

ما دام يصحب فيه روحك الجسد

فما يديم سرورا ما سررت به

ولا يرد عليك الفائت الحزن

(المتنبي)

«أعتـذر على تضييع وقتك يا بنـي، لم أستفد شيئا من الخمس ساعات الماضيـة غـير تغييرات بسيطة في الدواء كان من الممكـن أن تتم بالهاتف، لم تكن هذه الزيارة تستحق رحلتي من جدة بالكرسي، وتضييعك ليوم من عملك، على أي حال، هذه هي المرة الأخيرة التى أتابع فيها هنا، ربما يكون عندهم أطباء جيـدون في تخصصاتهم ومتميزون في علمهم ولكن تجربة اليوم تدل على أنه ليس لديهم أدنى إدراك عن فن التعامل مع المريض».

وتكررت مع عمي هذه الأحداث، لا أعرف هل هو سوء حظه أم لأن فيه شيئـا ما يجذب إليه الأطباء الذين من هذا النوع. قصص كثيرة ومتتابعة عن علاقاته مع أطباء (مزحلقين) أو أطباء (حشرانين) كما يسميهم.

وتتـوالى القصصـ التي لا نهايـة لها عن سوء تعامل بعضـ الزملاء مع المرضـى، وقلـة العناية بهم، قصصـ شهدت بعضها وحكـى لي هو بعضها الآخر، وبعد فـترة من توتر العلاقات بين عمي وبين الأطباء تحول عمي إلى مريضٍ مُتعب للأطباء، حيـث انعدمت عنده الثقة فيهم، وصار يتصيد لهم الأخطاء ويفترض فيهم التقصير، ونتج عن ذلك أن كانت العلاقة متوترة.

ومـع التنويم في المستشفى لفترات طويلة قـد يصل مجموعها إلى أكثر من سنتين، بدأت العلاقة مع بعض الممرضات تتوتر، فعلى سبيل المثال، مرة جاءته إحدى الممرضات بالأدوية وأثناء إعطائها له سقطت بعض الأقراص على الأرض، فما كان منها إلا أن رفعتها من الأرض وأعطته إياها ليأخذها. هنـا طار عقل عمي واشتـاط غضباً، ورفض تناول الأدويـة جميعاً، وأعلن حالة إضـراب عام! ولو تأملنا هذه الحادثة البسيطة، فعلى الرغم من أن الحبـة التي تسقط على الأرض ربما تكون صالحة للاستخدام ويرجح أنها

لم تتلوث، إلا أن إعطاءها للمريض وقد شاهدها سقطت، يعتبر ضرباً من الاستفزاز الذي لا يكاد يحتمل، وهذه نقطة مهمة في التعامل الإنساني كله وليس فقط في التعامل مع المرضى، فإن التعامل مع الإنسان في ظروف غير عادية لا يمكن أن يكون عادياً، فمن الصعب أن نتوقع من إنسان لا يستطيع الحركة لمدة أشهر أن يكون عقلانياً في تفكيره، صبورا في تعامله، منشرح الصدر متفائلا.

إن مثل هذه الظروف تستخرج من الإنسان أسوء ما فيه، فلربما صار عصبيا من غير سبب، قليل الصبر متوتر النفس، وعلى من حوله تفهم ذلك والتعامل معه على هذا الأساس، فكيف إذا كان الخطأ أصلا من الطرف الآخر.

كلما مر بي موقف أحسست فيه أنني قصرت في تواصلي مع مريض أو لم أوفق في توصيل ما أريد إليه، أتذكر عمي ومعاناته مع الأطباء، وأحس بالتقصير الشديد وأحس بواجبي المتحتم في المشاركة في رفع مستوى حساسية نظامنا الصحي في التعامل مع هذه القضية الجوهرية.

ملاحظة: توفي عمي رحمه الله بعد معاناة طويلة ومريرة مع المرض، توفي صابرا محتسبا، أسأل الله تعالى أن يغفر له ويرحمه، وأن يوفيه أجره بغير حساب، وأن يكتبه في عليين. وأرجو أن تكون معاناته سببا في تكفير ذنوبه ورفعة درجته،وأن تكون درسا لمن عرفها من الأطباء في التعامل مع المرضى المزمنين، وقد قرأ هذه السطور ووافق على نشرها في هذا الكتاب قبل وفاته.

«أهم شيء على الإطلاق في فن التواصل مع الآخرين، هو أن تستمع إلى الذي لا يقال»

بيتر دراكار

بقايا زجاج

(1)

كلما أنبت الزمان قناة
ركب المرأ للقناة سنانا

(المتنبي)

دخلت كالبركان الثائر، جلست في العيادة وكانت تجد صعوبة في الانتظار حتى تنتهي التحية والسلام، وما أن طرقت أسماعها عبارة «خيرٌ إن شاء الله يا أختي» حتى انفجرت كالسيل الهادر تتوالى أعراضها وتتوالى شكواها:

- «أشعر بصداع دائم، وزغللة في العيون، ودوخة مستمرة، حتى أنني أكاد أقع على رأسي، آلام مبرحة في البطن، وانتفاخات، وغازات مستمرة، كما أشعر بضيق شديد في التنفس، أحياناً خفقان في القلب وأشعر أن قلبي يكاد يتوقف. أحياناً أشعر أنني سأنهار تماما وأذهب إلى الإسعاف فورا وأقضي هناك ساعات دون فائدة حيث لا يستطيعون أن يفهموا حالتي وأخرج وأنا في حيرة وذهول».

أخذ يتراجع بالكرسي إلى الوراء، وأدرك فوراً أن هذه الزيارة ستأخذ وقتاً طويلاً، وبدأ يستعد لتواصل من نوع مختلف مع هذه المريضة.

- «منذ متى وأنت تشعرين بهذه الأعراض؟».

- «من سنتين تقريباً، ولكنها زادت في الفترة الأخيرة حتى أن حياتي بدأت تنهار، يادكتور من شدة المرض لا أستطيع أن أذهب إلى عملي، وبدأت أقصر في رعاية زوجي وأطفالي، حياتي كلها مرتبكة».

- «هل لاحظت أن هناك أسباباً لهذه الأعراض؟».

- «لا إنها تأتي في أي وقت».

- «هل هناك أي ارتباك في نومك أو شهيتك للطعام؟».

- «يالله، نومي ملخبط تماماً، ولا أنام أبداً في أحيان كثيرة وأستيقظ وأنا متعبة جداً ومنهارة، وأحيانا أنام لمدة يوم أو يومين، وأما شهية الأكل فمعدومة تماماً يا دكتور».

- «كيف علاقتك مع زوجك وزميلاتك في العمل؟».

- «بدأت تتأثر».

- «كيف؟».

- «عصبية طول الوقت، ولا أقوم بشؤون زوجي».

- «خير إن شاء الله، هل هناك أعراض أخرى؟».

- «نعم، أشعر بإنهاك دائم، وقلق شديد».

- «قلق من ماذا؟».

- «لا أدري، من كل شيء».

ثم سألها عـن العديد من الأعراض في الجهاز الهضمي والكبد وبعض الأعراضـ الأخـرى وكانت لا تشتكـي من أي من الأعراضـ التى تدل على وجود مرض خطير.

- «الأمر هينٌ إن شاء الله».

(قاطعتّه)

- «دكتـور، لم أترك مستشفـى إلا وذهبت إليه، وأخرجت من حقيبتها كميـةً ضخمة من الأوراق والتحاليل الكثيرة التي اطلع عليها بدقة ، تحاليل من كل نوع، وفي مستشفيات عدة».

- «على أي حال، ما من خطر إن شاء الله».

- «يـا دكتور، لقد جربت كل دواء، وقذفـت بيدها الأخرى على المكتب بكيـس كبير فيه كل أنـواع الأدوية التى يعـرف والتي لا يعرف، وقد استفاد منها كل شركات الأدوية والكثير من الصيدليات».

- «علـى أية حـال، أغلب الظن أنك لن تحتاجـي إلى كل هذه الأدوية، سنقوم ببعض التحاليل البسيطـة للتأكد من بعض الأشياء التى لم تفحصـ من قبـل ونجلس -بإذن الله- ونتناقشـ في خطة علاجية شاملة أرجو أن تضع حداً لمعاناتك».

(2)

وكيف أقضي ساعة بمسرة
وأعلم أن الموت من غرمائي

(المعري)

أتت نتائج التحاليل طبيعية كما توقع.

- «الأعراض التي تشتكين منها أعراض كثيرة ومتعددة، وتتعلق بالعديد من الأجهزة في جسم الإنسان، وعادة عندما تكون الأعراض كثيرة ومنتشرة في أكثر من جهاز من أجهزة الجسم فإننا نفكر في عدد محدود من الأمراض، نفكر أولا في أمراض الغدد وقد أثبتت التحاليل أنَّ الغدد عندك طبيعية جداً، وتعمل بشكل كامل ومنتظم. ونفكر أيضا في أمراض الدم والأعصاب والروماتيزم وهي في حالتك أيضاً تعمل بشكل ممتاز وطبيعي. بعد ذلك نفكر في بعض الأمراض الأخرى».

تقاطعه:

- «السرطان؟».

- «لا يا أختي، ليس لديك أي دلائل تدل على إصابتك بالسرطان مطلقاً، لقد استبعدنا هذه الاحتمالية».

- «بعد استبعاد كل هذه الاحتمالات التي ذكرتها لك، نفكر بعد ذلك في الأمور النفسية».

- «لا يـا دكتور الله يهديك، أنا أقولك ما أستطيع أمشي بعض الأحيان بل ـ والله ـ لا أستطيع الذهاب إلى العمل».

- «نعـم يا أختي، كل الأعراض التي تشتكـين منها يشتكي منها أو من أكثر منهـا المرضـى المصابون بالقلـق الشديد وأحيانـا الاكتئاب، ولست أنا من سيحدد ذلك إنما الطبيب النفسي المتخصص».

- «لا يـا دكتور، طبيب نفسي لا، لا يمكن أن يكون عندي مرض نفسي، أنـا مؤمنـة بالله وعنـدي أصدقاء كثيريـن وامرأة مجالس... أنا أريدك أن تكتشف المشكلة هل يمكن أن تكون مشكلة في المخ؟».

- «أختـي، أنـت تريدين العافيـة أم تريديـن أن تقضـي بقية عمرك تتنقلـين بـين الأطبـاء؟ المرضـ النفسـي كالمرض العضـوي تماماً يصيـب الناس بقدرة الله، فيبتلي بـه الله المؤمن والكافر والأبيض والأسـود والصغير والكبير، ولا يدل على نقص فيك أو عيب، وليس علامـة ضعف وليس فيه ما يشين، إنـه مثل المرض العضوي تماما، لمـاذا تتقبلين المرض العضوي ولا تتقبلـين المرض النفسي وكلاهما سيان؟. ثم إننا بمراجعة الطبيـب النفسي سنتأكد من التشخيص وستأخذين العلاج المناسب وتتحسنين بإذن الله».

- «لا أريد أدوية ، إنها مخدرات يا دكتور».

- «سأتـرك للطبيب النفسـي تحديد العلاج المناسـب لحالتك، ولكن هـذا مفهوم مغلوط عـن العلاج النفسي، ليس العـلاج النفسي كله أدويـة فقد يشتمل على أدويـة وقد يشتمل على جلسات علاج نفسي عنـد المختصـ، وتتحسن الحالة بـإذن الله، هـذا تخصص كامل

وفيه دراسات علميـة مستفيضة وليس مجالاً للتجريب أو التخمين. وأستطيع أن أروي لك قصصا كثيرة لمرضى استفادوا كثيراً وعادوا يدعـون لي، ويبشروننـي بالتحسن الكبير، أرجـوك اسمحي لي أن أساعدك ضعي ثقتك بي».

- «دكتور، سمعت عن الأشعة المقطعية للجسم كله، ربما تظهر شيئا ما خفي على الأطباء الآخرين».

- «كفاك يا أختي، لقد عمل لك الأطباء على مدى الأشهر الماضية كل الفحوصات الكاملة، وتبين أنه لا يوجد أي أسباب عضوية للمشكلة، ومـع ذلك فإننا سنبقي جميع الاحتمالات نصب أعيننا وإذا ظهرت أعراضٌ جديدة تدل على مشكلة جديدة فسنبحث الأمر في حينه».

- «ولكـن قـد يكون الورم قـد انتشر في الجسـم وعند ذلك يكون الأمر متأخراً».

- «أختـي، قلت لـك لا يوجـد ورم، اتركي الوساوس، واستعيني بالله واذهبي إلى الطبيب النفسي وستجدين عنده العلاج بإذن الله».

- «ولكنـي لا أستطيـع العمـل أو رعاية أسرتي، صحتـى منهارة تماما وحياتي تتحطم».

- «كل ذلـك بسبـب شـدة الأعراض العضويـة المصاحبـة للمشكلة النفسيـة، وهذه ستحل بإذن الله إذا ما عولـج السبب الرئيس وهو القلق النفسي الذي أصابك».

- «شكراً يا دكتور».

خرجت من عنده مسرعة، ولم تأخذ ورقة التحويل إلى الطبيب النفسي، وقد أعلنت بذلك فشله في إقناعها بمرضها وطريقة علاجه. شعر بالإحباط، لماذا لم يستطع أن يقنعها؟ لقد طبق كل الطرق التي تعلمها في التعامل مع المرضى الذين لديهم أعراض عضوية لمشكلات نفسية، لقد استمع إليها جيدا وسمح لها بطرح أعراضها ومشاعرها بكل أريحية وهذه خطوة مهمة في العلاج، لقد حلل معها أعراضها وشرح لها أبعادها النفسية، لقد حاول أن ينفي العلاقة الزائفة بين المرض النفسي وبين النقص الاجتماعي أو قلة الإيمان أو سوء التربية أو غير ذلك، لقد بين لها أن العلاج النفسي ليس أدوية كله وأنها حتى لو احتاجت أدوية فإن الأدوية النفسية في معظمها آمنة، وليس فيها إدمان، وأنها ربما تكون في الجملة أقل أضرار من الأدوية الأخرى، وحاول أن يصرف عنها الوهم بكل سبيل وأن يساعدها على التخلص من الوسواس بكل طريق، وحاول أن يشجعها ويدفعها... فعل كل هذه الخطوات .. وهذا كل ما يستطيع أن يفعله ويقوم به، ماذا بوسعه أن يفعل أكثر من ذلك؟ ليس هناك طرق أخرى في المراجع العلمية للتعامل مع مثل هؤلاء المرضى. لماذا نفشل نحن الأطباء في إقناع هذه الشريحة الكبيرة والمتزايدة من المرضى، ولماذا ينجح غيرنا في استثمار قلقهم في مكاسب مادية أو تحقيق سمعة؟ أسئلة كانت وما زالت تؤلمه.. ولكن ما يؤلمه أكثر أنه فشل معها، وأنها في طريقها الآن إلى طبيب آخر يجري لها المزيد من التحاليل والأشعات.

«استفد من أخطاء الآخرين فإنك لن تعيش فترة كافية لترتكبها جميعا»

(مارتين فانبي)

وإذا حصل نزيف؟

(1)

يـا نـائـم الـلـيـل مـسـرورا بـأولـه
إن الـنـوائـب قـد يُـطْـرقـن أسـحـارا

(مجهول)

الساعـة الحاديـة عشـرة والنصـف مسـاءً، الطبيب يحتسـي الشاي الأخضـر، ويتفـرج على الأخبار، ويستعـد نفسيا وجسديا للنـوم، يأمل أن يؤهله النوم ليوم شاق وطويل في الغد، خيالات المرضى تتراءى له بين حين وآخر، لقد كان يوما شاقا بحق، جهاز النداء يرن، كأن رنته الليلة أعلى من المعتاد، أو هكذا بدا له.

الاختصاصي المناوب على الخط:

- «دكتور، أعتذر عن إزعاجك، مريض في الستين من عمره لديه جلطة شديدة في الرئـة ووضعه حرج، تنفسه صعـب، وضغطه منخفض، وتحاليل دمه تثبت انخفاضا في نسبة الأوكسجين في الدم».

- «حسناً استعدوا لإعطائه مسيل الدم، وأنا في الطريق».

منبـه السرعـة يـدق في سيـارة الطبيـب منبهاً علـى تجـاوز السرعة القصـوى، الطبيب يخفف من السرعة قليـلاً، ويسرح في طوفان هائل من الذكريـات، يتذكـر يوم كان طبيبـاً مقيماً يوقظه النـاس في ساعات الليل

المختلفـة، هذا تسمم غذائي، وهذا حمـى، وهذا فشل كبدي، وذاك جلطة في القلـب. كان الليـل بالنسبة لـه أشبه ما يكون بمعركـة مستمرة يصارع فيها الموت والمرض، حياته كلها بين المرضى، حتى كان في كثير من الليالي لا ينام لحظةً واحدة، بل لا يقترب من حجرة الطبيب حتى يفكر في النوم، وفي الصباح يحس وكأنه قد ضرب على رأسه بمطرقة كبيرة وكأن الطاقة قد أفرغت مـن جسده إفراغاً كاملاً، وكأن القـدرة العقلية والجسدية قد استلَّـت منـه تماما، ولكن أين المفر؟ لابد له مـن أن يستقبل اليوم الجديد بحيويـة لا يدري من أين يقترضها، ونفـس منشرحة لا يدري من أين يأتي بهـا، فالاستشـاري يأتي في الصبـاح وقد نام ليلته كلها يريـد أن يمرَّ على المرضى المنوَّمين في الليلة السابقة، فكل ما يلزم هؤلاء المرضى من تحاليل وصور ومتابعات لابد أن يقوم هو بها في اليوم التالي، كما أن عليه أن يكتب في ملفـات المرضى آخر النتائج، ويصف حالة المريض، وأحيانا لا يغادر إلا في الساعة الخامسة بعد العصر، وقد كان دخل المستشفى الساعة السابعة مـن اليوم السابق، والتـي تبدو له الآن وكأنها في القـرن الماضي إذ يستعد للرحيل إلى بيته بقايا إنسان.

منبـه السرعـة يدق مرة أخرى، كـم هو شعور جميـل أن يسخرك الله لخدمـة الناس، كم هـو شعور جميل أن تحس بأنك مهـمٌ في حياة شخص آخـر، زميلـي فلان قد يخرج في الليـل لإبرام صفقة، وآخـر يخرج ليسهر مـع شلة البلوت، وثالث يخرج لسفـر أواجتماع، أما أنا فأخرج لإنقاذ روح، أخرج لدفع ضر، أخرج لأمنح العافية بقدرة الله، شعور لذيذ!!

رجـل الأمـن يفتح له بوابـة المستشفى، يدخل مواقـف المستشفى التي بـدت فارغة إلا من سيـارات الأطباء المناوبين. يـا الله، لقد كانت سيارته

واقفة في نفس هذا الموقف حتى الساعة السادسة من مساء اليوم، لم يكن يخطر بباله أنه سيعود مرة أخرى بعد بضع ساعات.

لكنّ الوضع مختلف تماماً في قسم الإسعاف، لماذا يرتبط قسم الإسعاف دائما بالزحام والتوتر في كل المستشفيات التي رآها في حياته؟

كل ليلة في قسم الإسعاف تتغير حياة الناس إلى الأبد، فمن ناج وغير ناجٍ، ومن مكسور ومجبور، ومن باك وضاحك، هذا يحضر زوجته الشابة لتضع طفلهما الأول، وذاك يحضر أمه التسعينية وهي في النزع الأخير، هذه تصحب طفلتها المصابة بالتشنجات وقد انخلع قلبها هلعاً عليها، وذاك يُؤتى به محمولا وقد تهشّم في حادث سيارة، ولكن الذي يجمع هؤلاء جميعاً تسارعٌ في النبضات، وذهولٌ عام يشترك فيه الجميع، وتوتر يبلغ المستوى الأحمر.

(2)

لئن كنت محتاجا إلى العلم إنني
إلى الحلم في بعض الأحايين أحوج
(مجهول)

يدخل مباشرة نحو سرير (3) في قسم الطواري، مريض خمسيني يتنفس بصعوبة وعلى وجهه علامات الخوف.

- يتحدث مع المختص باللغة الإنجليزية: «مساءُ الخير يا دكتور محمد، أرجوك لخّص لي الحالة بسرعة وأريد أن أرى الأشعة».

الاختصاصي يشرح الحالة باختصار فيما يحدق الاستشاري في الأشعة.

- «لا بد من إعطائه دواء تذويب الجلطات، سأتحدث إليه».

- «مساك الله بالخير يا عم، لا إن شاء الله بسيطة، لا تقلق أريد فقط أن أسألك بعض الأسئلة».

الاستشاري بعد أن أخذ تاريخ المرض وفحص المريض: «شوف يا عم سليمان، اللي حصل أنه تكونت جلطة دموية في أحد أوردة القدم وانتقلت إلى الرئة وهي الآن سادة أحد الشرايين الرئيسية للرئة، وتمنع الدم من الوصول إلى الرئة، وهذا أثر على وظائف الرئة والقلب وأدى إلى نقص في مستوى الأوكسجين في دمك».

شرح له الحالة في عشر دقائق أو أكثر.

- «والحل يا دكتور، والله روعتنا الله يهديك!».

- «هناك دواء يمكن ـ بإذن الله ـ أن يساعد في تذويب هذه الجلطة ولكن لا بد أولاً أن أتحدث معك عن هذا الدواء قبل إعطائك إياه».

- «لا يا دكتور، أنا إيش يعرفني أنت الدكتور وأنا واثق فيك».

- «ولكن لا بد أن أشرح لك قليلا عن هذ الدواء وطريقة عمله والمضاعفات المحتملة منه. إذ أنه في حالات نادرة يمكن أن يتسبب الدواء في نزيف قد يكون خطيرا بسبب قوة هذا العلاج».

- «نزيف !! كيف يعني نزيف؟».

- «السبب أن هذا الدواء قوي جدا في تذويب التخثرات فإنه في حالات نادرة قد يؤدي إلى نزيف».

- «نزيف وين يعني؟».

- «يمكن أن يكون النزيف في المخ أو الجهاز الهضمي أو البولي، ولكن هذه الاحتمالات نادرة بحمد الله».

- «يعني نزيف شديد؟».

- «في أغلب الأحيان يكون النزيف بسيطاً في حالة وقوعه، ولكنه يمكن أن يكون شديداً».

- «والله خوفتني يا دكتور».

- «لا أنا أشرح لك فقط. الفوائد المتوقعة من العلاج، وهي تذويب الجلطة وإعادة مجرى الدم إلى طبيعته، وإنقاذ حياتك من حدوث نزيف لا قدر الله».

- «ولكن إذا حدث نزيف ماذا نفعل؟».

- «يا عم سليمان، إذا حدث نزيف لا قدر الله ـ ولن يحدث بإذن الله ـ فسنتعامل معه في حينه».

- «السلام عليكم، هلا يا دكتور أنا الملازم محمد ابن المريض».

- «أهلاً وسهلاً، حياك الله، أبشرك الوالد بخير، ماذا قلت ياشيخ سليمان؟».

- «خير يا دكتور، طمنا عن الوالد؟».

- «بسيطة بإذن الله، لقد شرحت له كل شيء».

- «يعنـى الحالة مستقـرة، نحن مستعدون نجيبله أمـر للعلاج في أي مكان».

- «الحالـة عاجلة وتحتـاج إلى عناية وهي متوفرة بحمد الله هنا في هذا المستشفى».

- «وماهي طريقة العلاج الآن يا دكتور؟».

الاستشـاري يعيد شرح الحالة على مضض للملازم محمد الذي تكاد تخرج عيونه من محاجرها بمجرد ذكر كلمة نزيف.

- «ما فيه علاج بالليزر أو الجراحة؟».

- «لا، العـلاج الوحيد المتوفر الآن هو هـذا الدواء، وهو الدواء المعتمد عالميـا في جميع مستشفيات العالم، علـى أية حال سأعود إليك بعد خمس دقائق لأعرف رأيك وتوقع لنا على الورقة إذا كنت موافقاً».

الاستشاري يكتب في ملف المريض.

رجلٌ ثلاثيني في كامل الأناقة يبتسم له.

- «دكتـور مساك الله بالخير أنا أخوك الصغير خالد بن سليمان ابن المريض اللي كنت توك تكلمه».

- «أهلاً وسهلاً، حياك الله، سلامات للوالد إن شاء الله».

- «يـا دكتـور، الوالد ضاق صدره جـداً من كلامك يا ليتـك ما كلمته وعطيته الدوا وبس».

- «كيـف أعطيـه الـدواء وبـس، هذا مريض مـن حقه أن يكـون ملما بمميزات ومضار كل علاج».

- «لكن يا دكتور شوف الآن قلقان من غير فايدة».

- «أرجـوك يا أخي أعطه الفرصة للتفكير وشجعه وادعمه من غير أن تتدخل في عملنا، نحن لدينا نظام معين لا بد أن نتبعه ولابد أن يوقع على الاقرار بالعلاج».

جـوال الشـاب يرن في وسط غرفـة الإسعاف بنغمـات أغنية راقصة، الملازم محمد ينهي مكالمة هو الآخر ويأتي مسرعا إلى الطبيب

- «دكتـور، اتصلت ببعض الشباب ويقولـون إنه نجرب الأسبرين أول يمكن بإذن الله يتحسن لأنه يقولون إنه قوي على الجلطات».

- «يا أخي الوالد وضعه حرج، وهو بحاجة إلى علاج عاجل، الأسبرين طيب ونافع بإذن الله ولكن ليس في مثل هذه الحالات».

- «طيب والعمل الآن؟».

- «أنا أنتظر رد العم سليمان».

- «ها يا دكتور وش قلت؟».

- «وش قلت في أيش، أنتو اللي وش قلتوا؟».

- «والله حنا خايفين من النزيف».

- «علـى أية حـال أنا أقـدر اهتمامكم ولكـن الوالد هو الـذي يجب أن يقرر».

- «ولكن الوالـد زي ما أنت شايف الله يهديك خوفته وبعدين هو ليس متعلما ويزعل بسرعة».

- «لا علاقة بالتعليم في هذه المسألة، هذه علاقة بين الطبيب والمريض وقد وضحت له كل شيء بطريقة مبسطة ويفهمها أي أحد».

- «ولكنك خوفته الله يهديك، يا ليتني جاي قبل ما تكلمه وكلمتك قبل

- والله يا أخي لم يكن ليغير شيئا، المريض من حقه أن يشارك في القرارات الطبيّة».

الملازم محمد وقد توتر كثيراً: «والعمل الآن؟».

- «يا أخي المسألة سهلة، هناك علاج أنصح بشدة أن يأخذه الوالد فإما أن يوافق وإما أن يرفض ونعالجه بمسيلات الدم العادية والأوكسجين».

- «ولكن يا دكتور حنا خايفين من النزيف».

- «قلت لكم إن النزيف احتماليته قليلة ونادرة، وأنا أرى أن يأخذ العلاج بأسرع وقت ممكن».

- «ولكن إذا حدث نزيف فما العمل؟».

- «عندئذٍ نتعامل مع الموقف بحسب الحالة».

- «ولكن لماذا نضع أنفسنا في هذا الموقف».

- «أنا أقدر لكم اهتمامكم بوالدكم ـ حفظه الله لكم ـ ولكن القرار قراره هو».

الاستشاري يتوجه إلى المريض بعد أنْ أتم الكتابة في ملفه: «ها يا عم سليمان نتوكل على الله ونبدأ العلاج؟».

- العم سليمان مرتبكا: «والله أنا خايف».

- الاستشاري يتنفس بعمق ويعيد شرح الحالة للمريض وأبنائه ويبين أن احتماليات النزيف قليلة ونادرة، وأن فوائد العلاج أكبر بكثير من مضاعفاته، وأن الحالة حرجة ولابد من التحرك بسرعة وينصح بشدة أن يبادر إلى أخذ الدواء، وأن أي طبيب آخر متخصص سينصح بنفس الشيء، وأن معظم المرضى يوافقون على أخذ العلاج، ويستفيدون منه ولا تحدث لهم أي مضاعفات.

- «أين يمكن أن يكون النزيف؟».

الاستشاري يفكر: لابد أن أستخدم الآن ورقتي الرابحة التي لا تخونني عادةً وتؤثر كثيرا في المرضى:

- «يا عم سليمان والله أنت مثل الوالد ، والله لو الوالد مكانك الآن ما كنت تركته من غير هذا الدواء، المسألة واضحة أنت تحتاج الدواء».

- «الله يجزاك خير».

- «ما فيه طيب دواء آخر، يا دكتور وش نسوي إذا صار نزيف؟».

جوال الشاب يرن مرة أخرى:

- «ألو... الله يسلمك خذ الوالد معاك، أبوي هذا أبو محمد جارنا يسلم عليك».

- «هلا بأبو محمد، جزاك الله خير على الاتصال...».

- «والله يا دكتور أنا متوكل على الله وما ودي أضر نفسي، أنا في رحمة الله، عطوني أوكسجين ومغذي وأدوية ثانية والله يتولاني، ثم أنا استشرت ناس وما شاروا علي بالعلاج..».

الاستشاري يبرئ ذمته ويشرح للعم سليمان وأبنائه أهمية العلاج وضرورته في هذه الحالات، وأن احتمالية حدوث مضاعفات منه قليلة وأنه ينصح به بشدة.

- «يا عم سليمان، هذا قرارك النهائي؟».

- «توكلنا على الله».

يعود الاستشاري إلى الملف ويسجل: لقد شرحت للمريض واثنين من أفراد عائلته الحالة بالتفصيل، وشرحت لهم حاجته الماسة إلى العلاج والمضاعفات المحتملة وقد قرر عدم أخذ العلاج.

(3)

أحزم الناس عاقل
لمس الجرح وابتسم
(عمر أبو ريشة)

خرج الاستشاري من قسم الاسعاف إلى سيارته، خرج من الموقف الساعة الواحدة والنصف مساءً، إنه على موعد مع هذا الموقف بعد بضع ساعات لبداية يوم جديد، يطوي الأرض إلى منزله، وعلى أنغام منبه السرعة أخذ ذهنه يسرح في ما حدث، لماذا رفض المريض العلاج؟ هل مرضانا مختلفون عن المرضى الآخرين؟ لماذا كنت أقول نفس المعلومات وبنفس الطريقة للمرضى في كندا وكان لا يرفض أحد منهم إلا في النادر؟ هل يطلب مني أن أنسى كل ما تعلمته من أخلاقيات المهنة في الغرب، وأمارس طباً مختلفاً على مرضانا؟ هل المشكلة في ثقة المريض عندنا

بالطبيب حيث يسمع المريض الكندي دائماً بإنجازات الطب ونتائجة المبهرة وقد رآى ذلك في أسرته ووالديه ومن حوله، بينما لا يستمع المريض عندنا إلى قصص أخطاء الأطباء والنجاحات المزعومة لرواد ما يسمى بالطب البديل؟ هل المشكلة في ثقافة المريض عندنا وخلفيته التعليمية بحيث يصعب عليه استيعاب الشرح من الطبيب؟ أم هل المشكلة في الطبيب نفسه لأنه لم يستطع أن يُبَسّط بشكل كاف ويشرح للمريض مرضه بطريقةٍ يفهمها. أم هل ثقافتنا العامة لا تستطيع استيعاب النسب والاحتمالات لأنها ثقافة مشافهة وعاطفة وليست ثقافة عقل ومنطق؟

هنا يخفف الطبيب السرعة ويسأل نفسه: العالم كله انتقل مما يسمى بالطب الأبوي (الذي يعتقد الطبيب فيه أنه هو الذي يفهم بينما المريض لا يفهم، وأن الطبيب هو الذي يأخذ كل القرارات وليس للمريض من الأمر سوى السمع والطاعة والتنفيذ من دون مناقشة أو توضيح) إلى الطب المبني على قرار المريض، حيث يشرح الطبيب للمريض بدقة طبيعة المرض ومتعلقاته ومميزات ومضار كل بديل علاجي، ويترك للمريض الاختيار، فلماذا يبتعد العالم كله عن (الطب الأبوي) ويستبدلوه بالطب الذي يراعى فيه حق المريض فى الاختيار، بينما يدفعنا بعض مرضانا دفعا إلى التجرؤ على حقهم وإخفاء المعلومات عنهم؟ هل نسعى نحن إلى مجارات هؤلاء المرضى وسلب حقهم منهم (وهو الأسهل لنا) ولا نخبرهم بشيء، أم نجاهد ونناضل في سبيل رفع مستوى مرضانا وتوطينهم على هذا الطب الحديث الذي يحترم عقولهم ويقدر رأيهم فيما يفعلون بأجسامهم؟

لماذا يتدخل أقرباء المرضى بشكل كبير في القرارات الطبية المتعلقة بأقربائهم؟ هل هذا نتيجةً لمجتمع العائلة الكبيرة الذي نعيشه؟ أم هل

هـذه بقايا الانتمـاءات القبلية التـي مازالت تتحكم بشـكل مباشر أو غير مباشر في حياتنا؟ كيف يمكننا أن نستفيد من هذا الدعم العائلي في تعزيز العمليـة التطبيبية، وإثرائها بدلا من عرقلتهـا وتشويهها من قبل الأقارب كما يحدث كثيرا.

يعـود الاستشاري إلى المنـزل الساعة الثانية بعـد منتصف الليل، لا يـزال الشاي في مكانه ولكنه غادر الحيـاة، كل من في البيت نائم، يضع رأسـه على الوسـادة فيحسّ بشعور غريب، ماذا حـدث هذه الليلة؟وهل سيجـد الشيـخ سليمان حياً صبـاح الغد؟ هل كان مـن الأفضل فعلاً أن يعطيه الدواء دون أي شرح ودون أن يبين له المضاعفات الممكنة؟ هل قام بواجبـه على أتم وجه؟ هل سيفعل الشيء ذاته مـع المريض القادم؟ هل يمارس الطب بنـاء على أصوله العالمية المعروفـة بغض النظر عن قبول المجتمـع له؟ أم يحوره ويقلمه ليتناسب مـع مجتمعه؟ أم يعود إلى الطب الأبوي السهل اللذيذ؟!

منبِّه الساعة يدق بعنف غير معهود، إنها الخامسة والربع صباحاً، قام سريعـاً لصلاة الفجر، ثم توصيل أطفالـه إلى مدارسهم، ومن هناك إلى المستشفى.. ويوم جديد..

«إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور»

(علي بن أبي طالب رضي الله عنه)

أنين الجرح

(1)

قلت لليل ــ ولليل عوادٍ ــ
من أخو البث؟ فقال ابن فراق

قلت: ما واديه؟ قال: الشجو واد
ليس فيه من حجاز أو عراق

قلت: لكن جفنه غير جواد
قال: شر الدمع ما ليس يراق

(أحمد شوقي)

لم يكن سهلا عليها أن ترى ابنتها الجميلة ذات، الشعر الأسود الرقراق الذي يلامس بحياء أطرافَ أذنيها، وذات الابتسامة العذبة التي تنسيها هموم الدنيا أن تراها ترقد على السرير الأبيض، كانت تظن أنها وعكة صحية عابرة سرعان ما تنجلي، ولكن الأمر بدأ يقلقها، يبدو أن الأمر أكبر بكثير مما ظنت.

كانت عهود مِلْء السمع والبصر، أول بناتها الثلاث، ولكنها بين أخواتها الثلاث كانت الوحيدة التي تملك القدرة السحرية على أن تدخل إلى قلبها السعادة من دون استئذان، وتبدد عنها أي هم وغم من دون عناء، كل ما في الأمر ابتسامة ترسم وإذا بالدنيا تشرق عليها شمس الروعة.

مضى أسبوعان وهي منومة في المستشفى، ولا تمضي ساعة إلا وطبيب يدخل وطبيب يخرج، والممرضات يأخذن العلامات الحيوية بهمة ونشاط، ولكن لا نتيجة، بدأت ترتكب الجرم الأكبر الذي إن ارتكبه المريض دخل بجدارةٍ في القائمة السوداء للأطباء والممرضات، بدأت تسأل: «ماذا وجدتم؟ لماذا عهود وجهها شاحب هكذا؟ لماذا تأخر في الأشهر الماضية نموها؟ لماذا فقدت همتها ونشاطها وبدت لمن حولها وردة جميلة بدأت تذبل؟».

- «يا أختي إنه اشتباه في الدم، نحن نقوم بجميع التحاليل وسوف نطلعك على الأمر أولا بأول».

كيف يتدرب الأطباء على هذه الجمل المطاطة الملغمة؟ كيف يمكن لأم قلبها ينبض بين أضلع ابنتها أن تفهم جملة كهذه؟ ولكن هي ذاتها تسمعها من جميع الأطباء، من الطالب الذي يتقاطر عرقا وهو يقدم الحالة خلال المرور اليومي على مجموعة الأطباء حتى كأنه طالب في الابتدائية يسمّع جدول الضرب، ومن الأطباء المقيمين الذين تشفق عليهم أحيانا لانشغالهم الدائم ولكنها تنسى تعاطفها معهم إذا ما سألتهم سؤالا أو طلبت منهم توضيحاً؛ لأنهم في العادة يعتبرون الأسئلة تعطيلاً لهم وتضييعاً لأوقاتهم الثمينة التي يقضونها غالباً يجرون بين أروقة المستشفى في خدمة أناس لا يتحدثون معهم. قالت مرة لأحدهم: «كيف لو دعوت ضيفاً إلى بيتك، وجلبت له أفخر الأطعمة، وألذ المشروبات وأجلسته على أثمن أثاث لكنّك لم ترحب به، ولم تتحدث إليه وبقيت طوال الوقت مكفهرا في وجهه مقطّب الجبين؟».

نظر إليها الطبيب ولم يفهم شيئاً، وقال: «ربنا معاها وانصرف».

أما اليوم الذي يقـرر فيه الاستشاري القيام بجولةٍ على غرف المرضى فـإن الأمهـات يعتبرنه يوم عيـد، إذ تسأل هـذه عن حالة ابنهـا أو بنتها، وتسـأل تلك عن إمكانية الخـروج في المساء، وتشحذ تلك تقريرا طبيا، أما الطبيـب المستعجـل فيجدها أسئلـة تافهة فلا يلتفت إليهـن، عندها تفقد الجولـة معناها وكأنها زيارة تفقدية الغرض منها التقاء الأعين، والترويح عن نفس الأطباء في نزهة جماعية إلى غرف المرضى.

صادته هذه المرة.

- «دكتور، طمنّي كيف التحاليل؟».

- «لم تنته بعد، نحن نحتاج إلى المزيد من التحاليل».

وأخذ يمازح عهود قليلا..

- «ولكن ما هي نتائج التحاليل حتى الآن؟».

- «اشتباه في الدم».

- «اشتباه في ماذا؟».

- «سنخبرك بكل شيء عند انتهاء التحاليل».

- «ولكن كم تتوقع أن يستغرق الأمر؟ أنا لدي بنات أخريات وزوج».

- «يـا أختـي نحـن نعـرف هـذا، كل هـؤلاء المرضى حولـك عندهم مسؤوليات لا أحد يحب أن يبقى في المستشفى».

- «ولكن كم تتوقع تقريبا؟».

الاستشاري يتحدث مع الأطبـاء المقيمين بالإنجليزية : «لقد تعلمت ألا أخـبر المريض بـأي مواعيد، لأنـه إذا تأخرت التحاليل وكثـيرا ما تتأخر، سوف يحملك المريض المسؤولية».

قالت أم عهود بعفوية ولم تكن تعرف الإنجليزية:

- «ولكن كيف نخطط نحن لحياتنا؟».

تعجب الاستشاري من جُرأتها، فقد اعتاد على نموذج معين من الأمهات المستسلمات اللاتي يشعرن أن مجرد مرور الطبيب بهن هو شرف كبير ولم يعتد على مرتكبات الجرم الأعظم وهو السؤال والمناقشة.

الطبيب المقيم: «غداً إن شاء الله، نحتاج لعمل عينة من نخاع العظم».

- «نخاع العظم؟».

- «نعم، لا تقلقي سنشرح لك كل شيء، هذه عينة ضرورية حتى نتمكن من التشخيص بدقة».

- «وهل هي مؤلمة؟».

- «سنشرح لك كل شيء. لا تقلقي».

- المريضة في السرير المجاور: «والله لا تشرحون شيئاً».

- الاستشاري ينظر إلى الفريق بحدّة وكأنه جنرال يؤنب ضباطه على عدم انضباط السجناء!

يتبادلون الابتسامات وينسلّون من الغرفة كأنهم أسراب القطا.

(2)

تحب حياتك الدنيا سفاها
وما جادت عليك بما تحب

(المعري)

لا يلبث الجوال أن يرن، إنه والد عهود، إنه يتصل يومياً:

- «ها، ماذا قال الأطباء؟ هل مر عليكم الاستشاري؟».

- «يحتاجون عينة من النخاع؟».

- «من المخ! لا لا يمكن، هؤلاء يعرضون ابنتنا للخطر لا توافقي أبدا».

- «قالوا إنها مهمة جدا حتى يتم تشخيص المرض».

- «لا، أقولك لا تخليهم يعملوا أي شيء مثل هذا».

- «ولكن».

- «من غير لكن، هذي بنتي وأنا مسؤول عن كلامي».

- «كيف البنات؟».

- «عند أختك ما أدري عنهم إنتي ما تسألين عنهم؟».

- «إلا، تقول مفتقدينني جداً».

- «وماذا تريدينني أن أصنع، أنا أيضا في حالة يرثى لها، الأكل كله من بره، والبيت صار خرابة، والملابس الوسخة متراكمة، الواحد ما يعرف مقدار المرأة إلا عندما يفقدها».

- «يعني اشتقت لي».

- «اشتقت للملابس النظيفة، والكبسة، والبيت النظيف بصراحة».

- «وأنا ما اشتقتلي؟».

- «خلي عنك الكلام الفاضي هذا الآن، متى تخرجون ؟ ترى أنا تعبان».

- «والله ما أحد كلمني أبداً».

تدخل الممرضة فجأة ومعها الطبيب المقيم:

- «وقعي يا أم عهود هنا».

- «ماهذا؟».

- «إقرار بالموافقة على عينة نخاع العظم».

- «ولكن والدها غير موافق».

- «غير موافق! كيف غير موافق، هذه ضرورية جداً».

- «ليش ضرورية، وإيش دخل العظم في الدم».

- «شوفي إذا ما عملنا العينة ما نقدر نوصل إلى التشخيص وقد تتدهور صحة عهود أكثر» .

- «يا دكتور، والدها رافض، خذ كلمه».

- «لا، لا، أنا مشغول كلميه أنت وقولي له أنّ العينة ضرورية ويعتمد عليها التشخيص».

نظرت إلى طبيبة الامتياز التي كانت واقفة خلف الطبيب المقيم المستأسد وقالت: «يا دكتورة، أحتاج أتكلم معاك».

تنهّد الطبيب المقيم، وانسلَّ بسرعة وهو يتمتم في نفسه: «اللهم حوالينا ولا علينا».

- «خير يا خالة».

- «أولا أنا عمري قريب جداً من عمرك وماني خالة».

- «آسفة».

- «ممكن تشرحيلي عن العينة شوية، ترى أنا مثقفة وأفهم يعني».

- «والله أنـا عمري ما شفت العينة هـذه، ولكن لابد أن تعرفي أن الدم يتكون أصلا في منطقة داخل العظم اسمها (نخاع العظم) وبالتالي العينة سوف تدلنا على نوعية الورم».

- «الورم!».

- «أعني المرض».

- «أي ورم؟».

- «من ضمن الاشتباهات في حالة عهود وجود مرض في الدم».

- «يعني ورم في الدم؟».

- «لا إن شاء الله».

- «أول مرة أسمع أنه ممكن يكون في أورام في الدم».

وقفـزت إلى سرير عهـود وأخذت تمسح على شعرهـا الجميل، وتتأمل براءتها وهي نائمة وتبكي بحرقة وتدعو في ألم.

- «يا أم عهود، وقعي على الورقة عشان مصلحة عهود».

أم عهود توقع...

(3)

إذا الليـل أضنـاني بسطت يـد الهوى
وأذللـت دمعـا مـن خلائقـه الكـبر

تـكاد تضـيء النـار بـين جوانحـي
إذا هـي أذكتهـا الصبابـة والفكـر

(أبو فراس الحمداني)

لم يتوقف بكاء أم عهود منذ تلك اللحظة، تحس ببركان ثائر من الحزن لا تستطيع السيطرة عليه، كانت تشك منذ اللحظة الأولى أن شيئا خطيرا يمتص الحياة من بين أوصال طفلتها الحبيبة، لكنها لا تريد أن تصدق.

- «وسعي صدرك يا أم عهود، ترى كل شيء مكتوب».

تواسيها جارتها في الغرفة

- «إن شاء الله ربنا يكتب الخير».

- «وبعدين جلسة المستشفى ترى والله ليست سيئة، على الأقل نرتاح من الطبـخ والنفخ والغسيل وقـرف الأولاد، والله هنا مخدومة ومرتاحة وما في غير اتفرج على التلفزيون والله يشفينا ويشفى كل مريض».

- «لكـن أنا عندي بنتين، عمرهما أربعة سنوات وسنتان تحتاجان إلى رعايـة وأنـا عمري ما تركتهم، وبعدين أنا زوجـي ما تعرفينه، غير متعاون أبدا».

- «هـو فيه زوج متعاون؟ كلهم كذا يريدون شغالة ومرأة في الليل فقط وغير كذا والله ما همهم».

يدخل طبيب طويل جداً، يدفع عربة عليها أنابيب وإبر وأجهزة مختلفة

- «يالله يا عهود يا شاطرة، نبغى ناخذ عينة بسيطة، يالله يا أم عهود امسيكيها بالله».

- «ولكن يا دكتور، ما أحد شرح لنا شيء عن العينة».

- «ما يحتاج، هذه عينة سهلة إن شاء الله، إذا تعاونت معنا عهود إن شاء الله ستكون سهلة جداً، وبعدين هي بنت شاطرة وتحب الدكاترة».

نظرت إليه عهود بعينيها الذابلتين في استسلام كبير ..

- «يالله يا أم عهود أمسكي عهود بقوة حتى لا تتحرك».

- «ليش هي الإبرة مؤلمة إلى هذه الدرجة».

- «طبعاً يا أم عهود، في إبره غير مؤلمة»؟.

عهود تنظر بخوف إلى أمها:

- «شاطـرة يا عهودي، أنتي من يـوم ما دخلتي وإنتي ممتازة حبيبتي، يالله خليك شاطرة عشان نطلع نروح عندأخواتك».

آه... صرخة جلجل لها المكان، ثم بكاءٌ مستمر:

- «يا دكتور بالله عليك على مهلك عهود تتعذب».

الدكتور لا يرد ويركز على عمله.

تبدأ عهود بالحركة ولا تستطيع الأمّ السيطرة عليها

الطبيب: «يا أم عهود أمسكي عهود بشكل أقوى حتى لا تؤذيها الإبرة».

- «لا أستطيع إنها تتألم».

الطبيب يصرخ: «أمسكيها بسرعة وبقوة وإلا ألغينا العينة لا بد من التعاون مع الأطباء!».

عهود تصرخ بشدة، وأمها تبكي بحرقة، والطبيب متوتر جدا ومركز على عمله

الجوال مرة أخرة

- «ها يا أم عهود، متى تطلعون؟».

- «عملنا اليوم».

- «عملتوا ماذا؟».

- «عملنا تحاليل وتطلع النتائج بكرة وبعدين نعرف».

- «ترى أنا مليت وإنت قاعدة هناك ما أنت حاسة فيني، أنا رجل ولي حقوق».

- «أنت على رأسي ولكن أنا ماذا أفعل؟».

- «لا تقوليلي على رأسي وعلى ما أدري أيش، هذا الكلام ما ينفعني، ليش ما تشوفيلك أحد من أخواتك يجلس مع البنت وتجي أنت تنظفي البيت وتشوفي حاجات زوجك».

- «ما أقدر أترك عهود أبدا».

- «ألو.. ألو..».

تتذكر كلماته: «أنتي ما انتي حاسة فيني»، الله أعلم من الذي لا يحس بالآخر. ما أقسى الإنسان عندما يكون أنانياً..

ثلاثةُ أيام تمضى وليس ثمة أخبار جديدة..

هي تعرف أن الفريقَ يمرّ كله مع الاستشاري يومي الأحد والأربعاء غداً هو الأربعاء، تصلي الفجر وتجلس لتقرأ القرآن، تقترب عقارب الساعة من العاشرة موعد جولة الأطباء، وعقارب الخوف تقترب من قلبها لتلدغه، وتنفث بعدها سمَّ القلق والخوف إلى كل جنبات روحها فتشلَّ نبضات التوكل والأمل، وتمر الدقائق كأنها جبال لا تكاد تتحرك، وتنتظر أم عهود تلك الأصواتُ التي تكرهها أصوات الفريق الطبي حيث تختلط أصواتهم وتتعالى ضحكاتهم، لقد وجدت فيهم الكثير من عادات العسكريين التي تمقتها، والدها كان عسكرياً، وكان يحدثها عن الاستبداد بين الرتب العسكرية، وكيف يتجبر الكبير على الصغير، وكيف أن الطاعة العمياء هي سيدة الموقف، الوضع لا يختلف كثيرا في الوسط الطبي..

- «الله أكبر الله أكبر».

- «يا الله أذَّن الظهر ولم يأت الفريق».

- «خرجت أم عهود تسأل عن سبب تأخر الفريق، هذا الزائر الثقيل الذي لا غنى لها عنه».

- «هناك مؤتمر لأمراض الدم اليوم، والأطباء كلهم ذهبوا إليه، لا جولة اليوم، يوم السبت إن شاء الله».

إذا كان تلك الدقائق قد مرت على أم عهود كالسنين، فإن اليومين التاليين مرا كالقرون، أبو عهود يتصل يوميا لا ليسأل عن بنته المريضة ولا عن زوجته المكلومة بل عن موعد الخروج.

وضع المستشفى مختلف كثيراً يوم الجمعة، المرضى والممرضات فقط وعدد قليل من الأطباء المناوبين الذين يحملون سماعاتهم التي قلما يستعملونها.

تنظر إلى عهود، ماذا ينتظرك يا عهود؟ بل ماذا ينتظر أمك؟ إنها هنا في الرياض وابنتاها الجوهرة وسارة يبعدان عنها مئات الكيلومترات، ولا تعرف في الرياض إلا الممرضات اللاتي كونت مع بعضهن علاقة طيبة.

عهود: «ماما فين بابا وفين أخواتي، ليش ما يجو يزوروني؟».

- «يجوا يا حبيبتي بس ما يقدروا، ما في حجز وبعدين في الرياض ما عندهم أحد فين يقعدوا؟».

- «ماما أنا خايفة».

- «من أيش يا ماما».

- «ما أدري».

- «لا تخافي يا حبيبتي، إن شاء الله كل شيء سيكون بخير».

سبحان الله، كان يوم الجمعة يوم اجتماع العائلة ويوم الغداء العائلي أو زيارة والدي، يوم الحمام الأسبوعي للبنات، وفي الليل عادة ما نخرج للسوق أو شراء بعض الحاجات. ما أبعد تلك الجمع عن هذه الجمعة.

(4)

والـنـهـارات كـالـيـتـامـى الحـزانـى
والـلـيـالي كـأمـهـات الـيـتـامـى
والأمـــاني رؤى سـجـين أقـــروا
شـنـقـه بـعـد سـجـن عـشـريـن عـامـا
هـــذه سـاعـة الجـــدار كـسـول
تـرجـع الـقَـهـقـرى وتـنـوى الأمـامـا
(البردوني)

هـذا هو السبـت، قاهر الناس وموقظهم من الحلـم الجميل. كم يكره الناس يوم السبت، إنه قاس وليس فيه أدنى مهارات التفاهم، إنه يأتي من دون تمهيد أو اعتذار فينتزع الناس من لحظاتهم الجميلة الحالمة إلى واقعهم المضني الشاق. ولكن هذا السبت بالذات يبدو أقسى، لقد أتى بعد ثلاثة أيام من اللهيب النفسي والانتظار، يكشر عن أبشع أنيابه وأفتكها في النفس.

إنها الساعة الثالثة عصراً، لم يأت أحد بعد.

هـل ظلمت السبت؟ هل خجل منـي ولم يرد أن يجرحني فانتدب الأحد ليـذوق متعة تعذيب الناس؟ هـل رق السبت لحالي فرآى في امرأة مسكينةً مغلوبـةً على أمرهـا فرقتها الأقدار عـن طفليها، يهددهـا زوجها كل يوم ويهددها مرض ابنتها كل دقيقة؟

ويأبى السبت إلى أن يكون وفيا لسمعته.

يدخل الاستشاري فجأة.

- «السلام عليكم يا أم عهود».

- «وعليكم السلام».

- «كيف كانت العينة عسى ما تعبت منها عهود؟».

- «الحمد لله على كل حال، طمني يا دكتور بالله عليك أنا قلقانه وعلى نار».

- «كله خير، كله خير، للأسف وجدنا في نخاع العظم الذي أخذنا عينة منه خلايا غير طبيعية ليس من المفروض أن تكون موجودة في النخاع، وهي التي أدت إلى التغيرات المختلفة التي لاحظناها في دم عهود، وهي المتسببة في الأعراض التي تعاني منها، وقد اكتملت جميع التحاليل اللازمة والأشعات واستطعنا أن نتعرف على نوع هذه الخلايا بدقة، وللأسف هذا النوع من الأورام لا يستجيب عادةً بشكل جيد للأدوية ولا العلاج الكيماوي ولكن هناك نسبة من الحالات تستجيب لزراعة النخاع».

أم عهود تستمع وكأنها في كابوس مزعج، ركزت أعينها على شفاه الاستشاري ولم تعد تسمع شيئا، إنه لا يزال يتكلم، ماذا يقول؟ وماذا عساه أن يقول؟ هل بعد ما قال كلام؟

أحست بالخمار وقد بدأ يلتصق بوجها بسبب ابتلاله بالدموع، أبعدته قليلا، لكن ما زال يلتصق، أنفاسها تختنق، قلبها يدق بسرعة، وتسمع صوته في أذنها، دمها يغلي في كل أنحاء جسدها، تبكي بمرارة، والطبيب لا يزال يتكلم.

مضى الأحد بين ذهول ودموع وذكر...

جاء الاثنين الحبيب يعتذر عما بدا من السبت ويدافع عنه، ليس له أي ذنب، كل ذنبه أنه جاء بعد الجمعة الجميل. «لا تعتذر عنه، فقد طعنني في أغلى ما أملك».

لملمت إيمانها، وجمعت شجاعتها وطلبت لقاءً آخر مع الاستشاري حتى تتناقش معه التفاصيل، لم تكن قد استوعبت شيئا في المرة السابقة. قيل لها: «إنه سيأتي في الثانية». شعرت بالكثير من الأمل والكثير من الهدوء وأحست أن الشجاعة ترتفع مستوياتها في قلبها بعدد دقات عقارب الساعة.

الجوال مرة أخرى، كم أرادت أن تغير هذه النغمة اللعينة وتستبدلها بنغمة أكثر حياة.

- «هاه، ما خلصتوا؟ ترى أنا صبري نفد».

لن أذكر له شيئا، أولا وافقت على العينة من دون إذنه وليتني لم أوافق، ثانيا سوف يرفض الزراعة لأنه لا يريدني أن أبقى هنا مدة أطول.

- «الحمد لله، شخصوا حالة عهودي وسنبدأ العلاج هذا الأسبوع».

- «يعني أجي آخذكم».

- «لا العلاج لابد أن يكون في المستشفى، قد يستغرق بعض الوقت».

- «شوفي، أنا ما أصبر أكثر من أسبوع وإذا ما جيتي ترى لا تلومي إلا نفسك».

- «يا أخي أنت ما في قلبك رحمة، تحسبني أنا قاعدة هنا أتمشى ولا في رحلة، أنا قاعدة في مستشفى أرعى بنتك اللي بين الحياة والموت».

- «وأنا ما لي حقوق يعني؟».

- «حقوقك عمري ما قصرت فيها، وأنا مستعدة أجيك يوم ولا اثنين وأرجع الرياض ثاني».

- «أقولك البيت صار خرابة وأنا تعبان، تقولي لي يوم ولا اثنين، خلاص نعالجها هنا».

- «عهود تحتاج إلى علاج تخصصي لا يتوفر إلا في الرياض».

- «أجل خليكي معاها عساها تنفعك».

(5)

ودعته وبودي لو يودعني
صفو الحياة وأني لا أودعه

وكم تشبث بي يوم الرحيل ضُحًى
وأدمعي مستهلاتٍ وأدمعه

لا أكذب الله، ثوب الصبر
منخرق عني بفرقته لكن أرقّعه

(ابن رزيق البغدادي)

مضى أسبوعان، تمت الزراعة، لقد زرعت روحها بين أضلع عهود، الليل سهر وترقب، والنهار مراقبة وتلهف، لم تعد الاتصالات تأتي من الزوج، ربما تفهم الوضع. أختها بدأت تتململ من ابنتيها المشاغبتين وزوج أختها بدأ يضجر منهن، والأطباء يغدون ويروحون بالإجابة الجاهزة المبسترة التي لا تسمع غيرها: «كل شيء طيب وعسى يكون خير».

عهود حرارتها مرتفعة وشكلها متعب، طفحٌ جلدي غريب انتشر كالوباء اللعين على جلدها الناعم المخملي، قَيء مستمر وإسهال لا ينقطع، تدنٍ متدرج في مستوى الوعي، إغماءةٌ مفاجئة، نقل سريع إلى العناية المركزة، تجري خلفها.. تبكي وتبكي.. وتركض خلف السرير الذي تدفعه ممرضة قاسية وطبيب مرتبك، توصد دونها الأبواب.

كيف أكون أنا في الخارج وتكون عهود في الداخل، هي قطعة مني،ولدتها من داخلي، لم تفارقني لحظة، كنت معها في كل نفس وفي كل حركة لمدة شهرين، كيف تغلقون الأبواب؟

توقعت أن يخرج أحد ليخبرها بما يحدث، أخذت تضرب على الباب بعنف. جاءها موظف الأمن:

- «هل أنت مجنونة؟! الا تعرفين أن هذه عناية مركزة والناس هنا بين الحياة والموت، وأنت تقرعين الباب بهذه الطريقة الهمجية».
- «ابنتي دخلت هنا قبل دقائق ولا أحد يخبرني عنها شيئاً».
- «يا أختي، أذكري الله وعودي إلى غرفتك واشربي شيئا من القهوة وادعي لها».
- «والله لن أتزحزح من هنا حتى لو أتيت بجرافة وجرفتني».
- «حسناً ولكن لا تضربي على الباب حتى تخرج الممرضة وتطمنك بإذن الله».

وتمضي ساعة أو يزيد، وتخرجُ ممرضة وتتعلق بها أم عهود كالغريق الذي وجد خشبة طافية في خضم الأمواج المتلاطمة، تمر الممرضة من أمامها دون أن تكلمها، ويغلق الباب ثانيةً. تركض خلفها، تتوسل إليها:

ـ «أرجوك طمئنيني عن ابنتي؟».

- «ماما أنا ما في معلوم».

وتمرُّ ساعة أخرى، ولا أحد يخرج، جلست على الأرض واستسلمت لحالة من الذهول التي لم تعد بعدها تميز شيئا، هل لهذا الهم من نهاية؟.

يفتح الباب:

- «أنت أم عهود؟».

- «نعم، أريد أن أراها».

- الطبيب المناوب يريد أن يتحدث إليك في غرفة الاجتماع بالأهل بعد خمس دقائق، هل اتصلت بوالدها.

- «والدها لا يعرف عنها شيئاً».

في غرفة الاجتماعات والوجوم يسيطر..

- «أمَّ عهود.. عهود أصيبت بتسمم دموي بسبب جرثومة دخلت في الدم، وانتشرت في كل مكان وهو من مضاعفات الزراعة المحتملة كما ذكروا لك قبل الزراعة، وللأسف أدى ذلك إلى ضعف شديد في القلب والتنفس احتجنا معه أن نجري لها تنفساً صناعياً. قمنا بتنشيط القلب ولكل دون جدوى، الله يرحمها ويصبرك».

أسمع من قلبي أنين الذبيح، وأشعر بأن عيني كأعالي الجبال التي تنبع منها الشلالات غزيرة، وأحس بالوقت وقد توقف، والمكان وقد فقد كل ما فيه ومن فيه، وأحس وكأنني دخلت وبعمق في الثقب الكوني الأسود الكبير.

- «أريد أن أراها».

- «طبعاً، تفضلي».

- «يالها من جميلة هذه البنت، أجدر بها أن تسبقنا إلى دار الجمال».

الممرضة تربت على كتفي..

- «أمَّ عهـود، لابـد أن نقوم ببعض الأعمال بخصوص عهود وقد أتى الليل، لماذا لا تذهبـين إلى الغرفة وترتاحين قليلاً، كما نطلب منك أن توقعي على هذه الأوراق».

ذهبـت تمشي إلى الغرفة، لم تعد تذكر رقـم الغرفة أو مكانها، لم تعد تعـرف من هي وما الذي أتـى بها إلى هذا المكان. ولكنهـا أحست بسكينة عظيمـة تسري فيها، فتملأ قلبها دفئاً، «من أخذها؟ أليس الذي أعطاها؟ من قدر علي كل هذا أليس الذي خلقني؟».

دخلت الغرفة، عاملة التنظيف تنظف الغرفة وقد وضعت أغراضها في كيس مثل كيس الخضار، هل يمكن أن تنتهي علاقة سبع سنوات من عمري مع ابنتي وعلاقة أكثر من شهر مع هذه الغرفة هكذا؟

الممرضة تقطع التفكير:

- «أنا آسفة جداً، هناك مريضة أخرى بحاجة ماسَّة إلى السرير».

- «وأنا أين أذهب؟».

- «إلى البيت».

- «بقيت عندكم أكثر من شهر ولازلت لا تعرفين أنني من خارج الرياض وأنه لا أحد عندي هنا».

يبدو أنّ الممرضة قد قدرت الوضع:

- «حسنا يا أم عهود، ستنامين في غرفة المرضات حتى الصباح».

اتصلت بزوجها، الجوال مغلق.

اتصلت بأختها، لا أحد يرد.

اتصلت بأخيها، صعق للخبر الذي لم يتوقعه أحد، ودهش أكثر لأنها كانت تكلمه بكل هدوء وسكينة، هو لا يعرف أنه لم تبق قطرة واحدة باقية من الدموع لتذرفها، ولم يعد هناك مزعة ألم لتبديها. وعد بأن يكون في الرياض في صباح الغد.

(4)

يا أبي، ما أنت في ذا أول
كل نفس للمنايا فرض عين

هلكت قبلك ناس وقرى
ونعى الناعون خير الثقلين

غاية المرء وإن طال المدى
آخذ يأخذه بالأصغرين

وطبيب يتولى عاجزا
نافضا من طبه خفي حنين

(أحمد شوقي)

يـوم الثلاثاء عادة يـوم بارد، لا يحمل الكثير مـن المشاعر، لكنه اليوم كصفيـح ساخن، أخوها دفـن عهود في الرياض في جنـازة هادئة صغيرة وادعة، والاستشاري يُهَنِّئ أم الطفلة التي كانت بجوارها على نجاح الزراعة وشفائهـا التام من سرطان الدم، والأطبـاء المقيمون يجرون بين الأجنحة مرهقين كالعادة، طبيبة الامتياز تستغرب أين ذهبت عهود ربما نقلت إلى قسم آخر، والممرضـات يأخذن العلامات الحيوية للمرضى في المستشفى، وجنـاح الولادة يستقبل تسعـة ولادات ذلك اليوم، أم عهـود تصلي وتدعو وتشعـر بالرضـى والتسليم، تركب السيـارة مع أخيهـا إلى بلدهم لترعى ابنتيهـا اللتين اشتاقت إليهمـا، أبو عهود يستمتع بشهـر العسل مع زوجته الجديدة على شاطئ البحر الأحمر.

والعجلة تدور...

«ليست الشجاعة في أن تقول كل ما تعتقد،
لكن الشجاعة في أن تعتقد كل ما تقول»

(أرسطو)

من يدفع الثمن؟

(1)

ليت الذين أحبهم علموا
وهم هنالك ما لقيت هنا

(الزركلي)

كان قد أنهى عيادته للتو، هو لا يحب هذه العيادة كثيرا لأنه يرى أنه لا يقدم فيها للمرضى الخدمة الطبية التي يستحقونها، بسبب سوء التنظيم والازدحام الشديد، وصعوبة الوصول إلى المعلومات والتحاليل، وأحيانا فقدان بعض الملفات .. عدد لا حصر له من المنغصات لا ننسى منها المرضى المشاكسين والمتطفلين والمتسلقين على النظام ممن يفوتون مواعيدهم بغير عذر، ويريدون أن يطوعوا العيادة لمصالحهم متناسين طوابير المرضى النظاميين الذين لهم حقهم.

جهاز النداء يرن بإصرار، يالله!!، كم يكره من اخترع هذا الجهاز! إنه طبيب القلب يذكره بموعد الجولة على المرضى. يالله، لم أصلِّ الظهر بعد ولم أتناول أي شيء منذ الصباح، وعندما علم أنه لا بد أن يمر على عشرينً مريضا غير مرضاه الأصليين، كبت في نفسه أمنية كوب من القهوة في دقائق من الاسترخاء يستجمع فيها قواه، واستسلم لفكرة الصلاة فورا والذهاب للمرور على المرضى.

بعد أربع حالات معقدة جدا راجع فيها الحالة مع الطبيب الاختصاصي حاول فيها أن يشرح فيها للمريض مرضه، وبدائل العلاج بكل شفافية، وحاول من خلالها أيضا أن يقوم بشيء من التدريس والتعليم للأطباء المصاحبين له في الجولة فهذا حقهم عليه، حيث إن هذا الاستشاري (في المستشفيات الجامعية مثلاً) كثيراً ما يطلب منه أن يكون خمسة أشخاص في شخص واحد. فهو أولا أستاذ جامعي عليه مسؤوليات تدريس الطلاب واختبارهم، والعناية بهم، ثم هو بعد ذلك طبيب عليه العناية بالمرضى يومياً من خلال العيادات والمرور والعمليات وغير ذلك، ثم هو بعد ذلك باحث مطالب بأن يقوم بأبرع الأبحاث العلمية في تخصصه وتقديمها في المؤتمرات العلمية، ثم هو فوق ذلك كله إداري وعضو في لجان متعددة على مستوى الكلية والجامعة ومطالب بالعمل لتطوير قسمه ووحدته وهكذا، ثم هو أخيراً إنسان له حاجاته النفسية والمادية والعائلية والاجتماعية، وكثيراً ما تختلط الأدوار مع بعضها ويطغى جانب على جانب.

المريضة القادمة امرأة في الثلاثين من العمر، وكانت حاملا في الشهر الثالث ولديها خلل شديد في أحد صمامات القلب الكبرى أدى إلى قصور كبير في وظائف القلب جعلها غير قادرة على المشي أكثر من بضع خطوات، وهذه الحالات هي من أصعب الحالات التي تمر على طبيب القلب فهذه حياة إنسانة وجنين ولابد فيها من اتخاذ قرار سريع وحاسم مع الكثير من الاعتناء بالجوانب النفسية للمريضة وذويها. ولذا كان الطبيب يرجو أن تكون مهمته سهلةً بأن تكون المريضة وزوجها متفهمين إلى حدٍ كبير.

- «السلام عليكم ورحمة الله، كيف حالك يا أختي؟ كيف حالك يا أخي؟ وكان زوجها جالسا بجوارها».

- «وعليكم السلام» أجاب الزوج ولم تجب هي.

- «منذ متى وأنت تشعرين بضيق التنفس يا أختي؟».

- «من أسبوعين تقريبا، كل شيء مسجل في الملف»، يرد الزوج بقرف واضح.

- «هل هناك ألم في الصدر أم أنك تشعرين بضيق في التنفس فقط؟».

- «ضيق في التنفس فقط».

- «أرجوك يا أخي أنا أريد أنا أسمع منها هي».

- «ولكنها زوجتي وأن أعرف أعراضها».

- «أعرف أنها زوجتك وأقدر لك اهتمامك بها ولكنها هي المريضة وهي التي لا بد أن تجيب عن الأسئلة».

- الزوج في امتعاض: «تكلمي» (وقد أعطاها الضوء الأخضر للحديث).

أجابت على الأسئلة إجاباتٍ مقتضبة.

يشرح الاستشاري للمريضة وزوجها عن معنى كلمة (صمام)، وكيف يتحكم الصمام بدفع الدم واتجاهه ويخبرهما بنتائج أشعة القلب الصوتية وأنها أظهرت قصوراً كبيراً في وظائف القلب بسبب الضعف الشديد في الصمام وأن الوضع الآن خطر.

- «في مثل هذه الحالات يكون أفضل حلّ هو التدخل الجراحي، وإصلاح العيب في الصمام بأسرع وقت ممكن، ولكن الحالة الآن لا تتحمل العملية بسبب الضغط الذي خلّفه الحمل على القلب، وبالتالي

علينا أن نستخدم كل الأدوية الممكنة لتخفيض الضغط على القلب، وإن لم يحصل ذلك فقد نضطر إلى إجهاض الجنين».

هنا انتفض الزوج وقال : «ما فيه إجهاض، أعوذ بالله».

- «هـذا الكلام سابق لأوانه، ولكن قـد نضطر إلى أن نتناقش في هذا القرار الصعب وأرجو ألا يكون ذلك».

- «المهم يا دكتور، إجهاض لا، نحن مسلمون ولا يمكن أن نرضى بذلك».

أدرك الطبيـب أن أمامه مشكلة كبيرة جـدا، فمثل هذه الحالات تكون القـرارات فيها صعبة جـدا على المريضـة وعائلتها مهما كانـوا متفهمين ومتعاونـين فما بالك والوضـع لا يبدو كذلك عند زوج هذه المرأة، وكم رجا أن تتحسن حال المريضة على الأدوية، فلا يضطر إلى مناقشة الأمر معهم مـرة أخـرى ولكنه يعلم جيدا في قـرارة نفسه أن الأيـام القادمة تحمل له مواقف صعبة للغاية.

(2)

إذا كـان وجـه الـعـذر لـيـس ببين
فـإن اطّـراح الـعـذر خـيـرٌ مـن الـعـذر

(الورّاق)

المريضـة تتدهور حالتها كثيرا، والأدويـة لا يبدو أنها تجدي نفعاً، فهي لا تستطيع النوم بشكل طبيعي، يمر عليها الطبيب بعد العصرمع الممرضة وفريقه الطبي، الزوج غير موجود.

- الاستشاري (بعد مقدمة طويلة وتمهيد): «أختي، للأسف أنت لا تتحسين على الأدوية كما ترين، ومع تقدم الحمل سيزداد الأمر سوءاً، وليس أمامنا سوى إجهاض الجنين وعمل العملية في أسرع وقت ممكن».

المرأة لا ترد.

- الاستشاري: «ما رأيك يا أختي؟».

- «لازم يجي زوجي».

- «معك حق، هذا الموضوع بالذات يحتاج إلى أن تناقشيه مع زوجك باستفاضة، وسوف نعطيك الوقت الكافي ولكن ما انطباعك أنت؟».

- «لما يجي زوجي».

- «خلاص، اطلبي من الممرضات الاتصال بي عندما يأتي زوجك».

بعد ساعة الممرضة تتصل بالطبيب، كان يتمنى لو أن أحدا آخر يكفيه هذه المؤونة، هذا موقف صعب.

- الاستشاري (بعد تمهيد وشرح متكرر).. «وكما تلاحظون، فالأخت لم تتحسن على العلاجات ولا بد من إجهاض الجنين بشكل سريع وعمل العملية».

- الزوج بحدّة: «قلت لك لا إجهاض ولا عملية!».

- «أنا أفهم تماما أن هذا قرار صعب، ولكني أحب أن أكون واضحاً معكم حتى أُبَرِّئ ذمتي أمام الله، حياة الأخت هند في خطر حقيقي إذا لم نتحرك بسرعة، وليس لدينا للأسف خيار آخر».

- «لا يمكن أن نقدم على هذا، هذا فيه قتل نفس وبعدين عملية مافي!».

- «هل أنت متخوف من الناحية الشرعية؟ لماذا لا تستفتي أحد العلماء حتى تبني قرارك على بينة بدلاً من أن تحكم في أمور خطيرة بناء على الظن؟».

الزوج وقد انشرح صدره شيئا ما، كأنه كانَ سيئ الظن بهذا الطبيب ولم يتوقع أن يكون لديه عناية بالجوانب الشرعية أو لأنه وجد أن الطبيب قد قرأ أفكاره، وقال :

- «سأسأل إمام المسجد في حارتنا غداً بإذن الله».

- «الموضوع لا يحتمل التأخير، ثم هل أنت متأكد من أن إمام المسجد عنده تصور عن مثل هذه الأمور، هذه مسألة تحتاج إلى عالم متبحر ومتصور للواقع الطبي للمسألة. وإذا كنت تثق بي فبإمكاني أن أريك أو أصور لك فتوى المجمع الفقهي المبيح للإجهاض في مثل هذه المواقف».

- «يكون خيرا إن شاء الله».

(3)

هون على بصر ما شق منظره

فإنما يقظات العين كالحلم

(المتنبي)

قبل نهاية الدوام بساعة وقد أخذ الجهد من الطبيب ما أخذ، البيجر (رفيق الدرب) يرن مرةً أخرى من ذات الجناح:

- «دكتور، زوج المريضة يريد أن يخرجها».

- «كيف؟ هل وافقت على الإجهاض؟».

- «لا أدري».

هرع الاستشاري إلى غرفة المريضة فوجد الزوج عند الباب يستعد للخروج.

- «ماذا حدث يا أخي، لماذا ترغبون في الخروج وإلى أين؟».

- «إلى المنزل!

- المنزل؟ أي منزل؟ يا أخي حالة زوجتك خطرة وقد تموت في المنزل، لا يمكنك أخذها!».

- «عندها ستة أطفال لا يرعاهم أحد، سنكون في رحمة الله يفعل بنا ما يشاء».

- «يا أخي الحبيب، كلنا في رحمة الله ولكنك بهذا التصرف تضر زوجتك ضررا بالغا وتأثم عند الله، ثم ما رأيها هي؟».

- «عفوا يا دكتور، لست أنت الذي يقرر من يأثم ومن لا يأثم ثم إن هذا هو قراري النهائي».

- «أصلاً قرارك لا يمضي على زوجتك في مثل هذه الأمور، يا أختي، هل أنت موافقة على الخروج؟ هل تعليمن أن هذا يعتبر بمثابة الانتحار وأن حالتك خطرة جدا؟».

لا ترد!!

- «لن أدعك تخرجين حتى أتأكد أنك فهمت خطورة الموقف وأنك أنت التي قررتِ هذا القرار وليس زوجك».

لا ترد!!

- «لا خروج من هنا حتى تتكلمي».

- «أنا طوعُ زوجي».

- «يا أختي، هذه المسألة ليس لها علاقة بالطاعة، هذه مسألة حياة أو موت، هل تدركين خطورة تصرفك على حياتك؟».

- «أريد أن أخرج».

- «أرجوك يا دكتور لا تؤخرنا!».

- «على أية حال، لا بد أن توقعي على ورقة أنك خرجت على مسؤوليتك مع علمك التام بخطورة ذلك عليك».

- نوقع.

- «لا، توقع هي».

أتى الطبيب المقيم بالورقة، وأخذها الزوج ليوقع.

- «قلت لك توقع هي».

ـ «توقع».

ويخرج الزوجان أمام الطاقم الطبي وسط ذهول عجيب من كل الحاضرين عند هذه اللحظة طلبت كرسياً متحركاً لأنها لا تستطيع السير، واختفيا عن الأنظار.

يعود الطبيب إلى مكتبه وقد دار رأسه، هل كان بوسعي أن أمنعهما من الخـروج؟ هل كانت المريضة فعلا مقتنعة بالخروج أم أن زوجها قد ضغط عليها؟ هل سيذهبون إلى مستشفى أخرى أم إلى البيت فعلا؟ هل استفتى الرجل؟ هل أفتاه شيخ لا يعرف في الواقع الطبي شيئاً، هل أثر عليه أقاربه وأهلـه؟ هل أخطـأت في تعاملي مع الموقف في أي شـيء؟ طوفان هائل من الأسئلة، ولا أجوبة!!

«لست فقط محاسبا على ما تقول، أنت
محاسب أيضا على ما لم تقل حيث
كان لابد لك أن تقول»

(مارتن لوثر كينج)

أرجوك..لا تذبحه..

(1)

وتسألني متى تشفى
جراح القلب في الحب
لقد حاولت أن أنسى
فزاد الوجد في قلبي
بربك هل ترى حلا
له في عالم الطب؟

(عبد الرحمن رفيع)

خرج لتوه من المحاضرة، جهاز النداء يدق برقة، الرقم غريب، الله يستر.

الأرقام الغريبة على جهاز النداء تعني عادةً أن المتصل طالب أو طبيب مقيم لديه مشكلة، أو أحد الزملاء يحتاج إلى خدمة، غالباً ما تكون معاينة أحد معارفه في العيادة، أو مشكلة إدارية ، أو دعوة إلى اجتماع ممل في أحد اللجان التي لا تنتهي.

زميل في قسم الأطفال لا يعرفه، يعرفه بنفسه ويطلب منه أن يعاين قريباً له، شخصت حالته بأن لديه ورما في الغدد اللمفاوية. الزميل على الهاتف:

- «أعتذر على إحراجك ولكن المريض حالته صعبة جداً، وأهله قلقون جداً وأقرب موعد بعد ثمانية أشهر».

- «لاتقلق يا أخي، نحن في الخدمة، هل يمكنه أن يأتيني الأربعاء القادم بعد العيادة؟».

الأربعاء بعد الظهر، تدخل ورقة صغيرة مكتوب عليها «من طرف الدكتور»....سلّم على حامل الورقة، وطلب منه الانتظار حتى ينتهي من جميع المرضى لذلك اليوم، حيث إن من عادته ألا يعاين أي مريض إضافي قبل الانتهاء من جميع المرضى المدونة أسماؤهم.

إنها الساعةُ الخامسة تقريباً بعد ثلاث ساعات مضنية قضاها في العيادة، يدخل الملف وشخص يبلغ من العمر حوالي ثلاثين عاما، عرف القصة مباشرة فهذه تجربة شبه يومية، يدخل الأبناء والبنات قبل المريض يحذرون الطبيب من أن يقول شيئا للمريض عن مرضه. ترك المجال لابن المريض أن يتكلم.

- «يا دكتور أحببت أن أخبرك بأن الوالد لا يدري عن الورم ولابد ألا يدري».

- «لماذا؟».

- «الوالد حساس جدا ونخاف على نفسيته».

- «وماذا يعرف الوالد عن مرضه حتى الآن؟».

- «قلنا له إنه التهاب بسيط، وأكد له ذلك الطبيب في المستوصف بعد أن اتفقنا معه».

- «ولكني لا أستطيع أن أشترك معكم في هذه المؤامرة».

- «مؤامرة؟».

- «نعم مؤامرة، الوالد مريض وأنا الطبيب والعلاقة هي أصلا بين المريض والطبيب ومن حق المريض على الطبيب أن يخبره بمرضه وليس لكم مصادرة هذا الحق منه دون علمه».

- «ولكن الوالد ستنهار نفسيته ويمرض أكثر مما هو مريض».

- «يا أخي، أولا ردّ فعل الوالد لا تستطيع أن تحدده أنت ولا أنا، ومن الطبيعي أن يتأثر وينزعج، ولكن معظم المرضى يتقبلون الوضع بعد ذلك، ثم إن لدينا طرقنا الخاصة في إخبار المريض بشكل متدرج وعلى مراحل».

- «ولكن لماذا يعرف؟».

- «قلت لك لأنه هو المريض ومن حقه أن يعرف ، ثم إن هناك قرارات طبية لا بد أن يتخذها هو بنفسه فقد يكون هناك عملية أو علاج كيماوي أو قسطرة أو بدائل أخرى، فكيف سيقرر الوالد العلاج الذي يريده إذا كان لا يعرف مرضه أصلا؟. ثم إنه قد يكون عليه ديون يريد أن يقضيها، أو أحد يريد أن يصالحه، أورغبة يريد أن يقضيها فالأعمار بيد الله، هل تحب أنت أن يكون عندك مرض خطير ولا تدري عنه شيئا بينما يعرف كل من حولك؟».

الابن تجحظ عيناه ويرتبك ارتباكا ظاهراً.

يلتفت إلى الممرضة: «أرجو أن تنادي على المريض».

(2)

جامل الناس تُحْزِ رق الجميع
ربَّ قيد من جميل وصنيع
(أحمد شوقي)

يدخل رجل ستيني يمتلِئ حيويةً ونشاطا وبشرا

- «السلام عليكم».

- «وعليكم السلام ورحمة الله، هلا يا عم أحمد حياك الله».

وبعد أخذ قصة المرض بالتفصيل وفحص المريض يستقر العم أحمد في كرسيه، يقرب الكرسي منه ويقترب منه كثيراً، ثم يشرح له قليلاً ثم يقول:

- «خير إن شاء الله. يا عم أحمد، أظهرت الأشعة التي عملتها في المستشفى الخارجي اشتباه وجود ورم في الغدد اللمفاوية.

- العم أحمد : وقد ارتبكت قسماته: «ورم؟».

- «نعم ورم يا عم أحمد، هذا الورم يمكن أن يكون نتيجة التهاب فيروسي أو ورم حميد أو ورم غير حميد لا سمح الله».

أعطى فرصة للعم أحمد ليستوعب الموضوع، وبعد عدة لحظات قال:

- «والخطوة القادمة هي عمل عينة من الغدة للتأكد من التشخيص».

- «لا إن شاء الله ما فيني إلا العافية».

- «بإذن الله نسأل الله أن يكون كل شيء طيباً».

- «وإذا كان الورم غير حميد؟».

- «إذا كان غير حميد نتكلم عنه في حينه، فهناك وسائل متعددة للعلاج بإذن الله».

- «وهل هناك أي نوع من الأطعمة لابد أن أمتنع عنها؟».

- «لا، بإمكانك أن تتناول ما تشاء على أن يكون طعاما صحيا قليل الدسم والسكريات، أريدك أن تعيش حياتك بشكل طبيعي. سأصرف لك بعض الأدوية ونجدول لك العينة الأسبوع القادم بإذن الله».

- «توكلنا على الله».

انشغل بِمَلْء نموذج طلب العينة، ونظرات كالسهام تخترقه من ابن المريض، يتجاهلها، ولكنه يحس بحرارة القلق ونبضات التوجس التي بثَّها في الغرفة بكلامه هذا.

ليس أمامه خيار آخر، لابد أن نواجه الحقيقة..

يخرجان..

(3)

أغدا ألقاك يا خوف فؤادي من غدي

يـالخـوفي واحـتراقـي في انتظـار الموعد

(الهادي آدم)

الأربعـاء بعد أسبوعين، الساعة الرابعـة والنصف عصراً، يدخل العم أحمد وعلى محياه القلق الواضح:

- «ها يا عم أحمد، هل أتعبتك العينة؟».

- «لا ــ والله ــ ولكني سمعتهـم يتهامسون بعدها، وطلبـوا استشاري الأشعة أكثر من مرة وأنا أعرف أن هذا لا يبشر بالخير».

- «يـا عم أحمـد: أنت مؤمن وتعلـم أن كل ما يصيـب المؤمن هو خير له».

- الابن: «طمنا يا دكتور قله أن العينة طبيعية، مجرد التهاب ، هو الله يهديه الوالد قلقان على الفاضي».

اقترب من الشيخ أحمد وبعد تمهيد دام أكثر من خمس دقائق قال:

- «لقد راجعت الأشعة والعينة، ولقد أثبتت العينة وجود ورم غير حميد في الغدد اللمفاوية ولكنه من النوع الذي يمكن التحكم فيه بالأدوية بإذن الله».

صمت برهة حتى يترك له المجال ليستوعب الخبر، كانت قسماته عادية ولم يبدُ عليه أي تأثر، ولكن عينيه اغرورقت بالدموع، وشعر بخجل شديد من ذلك، فحاول أن يخفيه ويمسحها بطرف شِماغه، وحاول جاهدا أن يخفيها عن ابنه الذي بدا مرتبكا ومنزعجا أيّما انزعاج، تركه يتفاعل مع الخبر.

- «معليش يا دكتور».

- «معليش على ماذا؟ أي إنسان يسمع خبراً مزعجاً فمن الطبيعي أن ينزعج، لو لم تنزعج لكنتَ غير طبيعي، أنا متأكد من أن الله سيقدر لك الخير. أنا وأنت ونحن جميعا تحت قدرة الله وعلينا الرضى والتسليم بأقداره».

- العم أحمد بصعوبة: «الحمد لله».

- «لا بد لنا أن نقوم ببعض التحاليل الأخرى حتى نقرر أفضل أنواع العلاج لك».

- «لكن ما أريد كيماوي يا دكتور».

- «سأشرح لك جميع البدائل يا عم أحمد، وسوف تقرر أنت العلاج المناسب بعد أن تستمع إلى جميع المعلومات التي تحتاجها وسأكون سعيداً لو أحببت أن تحصل على رأي آخر من أي طبيب تشاء داخل المملكة أو خارجها، هذا حقك علي».

العم أحمد وقد هدأ كثيراً: «جزاك الله خيراً والله ما قصرت يا دكتور».

- «كيف تشعر الآن يا عم أحمد؟».

- «الحمد لله على كل حال».

- علـى أية حال هذه أرقامي ويمكنـك الاتصال بي إذا بدت لك أسئلة وسأراك الأسبوع القادم بإذن الله بعد انتهاء التحاليل.

يخرج العم أحمد والابن وقد بدت نظرات الابن أقل حدة وأكثر اقتناعا، وبدا وكأنه قد ارتاح من حمل ثقيل كان سيحمله لوحده.

(4)

نـاجٍ أنـا أو هـالـك والـدنـى رحـى
تـدور علـى عـاصٍ ونـاسٍ ومـؤتمـن
فـإن كـانـت الأولى فلـن أعـدم المنى
وإن كـانـت الأخـرى فلـن أعـدم الكفن
(حيدر الغدير)

يدخل العم أحمد وابنه العيادة. يبدو العم أحمد منشرحا

- «كيف أنت الآن يا عمّ أحمد؟».

- «الحمد لله يا دكتور».

- «أظهـرت نتائـج التحاليـل أن أفضـل طريقة للتعامل مـع الورم هو العلاج الكيماوي».

شرح له عن هذا العلاج بالتفصيل ووضح له مميزاته وعيوبه وشرح له ميزات وعيوب طرق العلاج الأخرى ولماذا اقترح هذا العلاج.

أخـذ العم أحمد يسأل وهو يجيبه وكانت معظم أسئلته ذكية وتدل على أنه فكر في الموضوع. - - قال له: «ما رأيك؟».

- تردد قليلاً ثم قال: «والله».

- «هل تحتاج إلى مزيد من الوقت للتفكير أو الاستشارة والاستخارة؟»

قال: «لا، توكلنا على الله».

(5)

خـذ مـن الـدنـيـا جـلـيـل الـعـظـة
تـتـجـلـى في بـلـيـغ الـكـلـم
طـرفـاهـا جـمـعـا في لـفـظـةٍ
فـتـأمـل طـرفـيـهـا تـعـلـم
الأمـــــاني حـلـم في يـقـظـة
والمـنـايـا يـقـظـة مـن حـلـم

(شوقي)

طالـب الطـب الجالس في العيـادة يتمتم بصوت مـتـردد: «دكتور لازم نقول للمريض عن تفاصيل مرضه بهذه الطريقة؟».

- «لا يوجـد طريقة جيـدة لتقول لمريض إن لديه ورما خبيثا، ولا يوجد طريقـة جيـدة لتقـول لإنسـان إن أعـزَّ الناس عليه قد تـوفي، هذه الأخبـار المؤلمـة لا يوجد طريقـة مثالية لإخبـار المريض بهـا، إنها بطبيعتهـا مؤلمة وقاسية على الطبيب والمريض وأهله، ولكن من حق

المريض في النهاية أن يعرف مرضه بدقة، إلا إذا طلب هو ألا يُخْبَرَ بشيء، ولكن مما يوصي به الخبراء في هذا المجال (للتخفيف من الآثار السلبية لهذا الشر الذي لابد منه): أن تختار الوقت المناسب والمكان المناسب، فلابد أن يكون لديك الوقت الكافي للتحدث مع المريض بإسهاب، وهذا ما نفتقده كثيراً في عياداتنا للأسف، فليس من المعقول أن تقول لمريض إنه مصاب بالسرطان في خمس دقائق، ولا يكون لديك الوقت الكافي لمناقشة الأمر مع المريض بالتفصيل، كما لا بد من اختيار المكان المناسب الذي يكون فيه خصوصية، ولا يكون فيه مقاطعات كثيرة وهذا أيضاً مما نفتقده في مستشفياتنا، و بعد التأكد من توفر الوقت الكافي وملائمة المكان يفضل أن يخبر المريض بالأخبار السيئة أكثر أعضاء الفريق خبرة وهو المسؤول الأول عن المريض وهو الطبيب الاستشاري المعالج، وينبغي ألا يقوم بذلك الأطباء المتدربون أو الطبيب المناوب الذي ليس له علاقةٌ مباشرة بالمريض.

وبناء على ذلك يفضل أن يكون الطبيب قد كوَّن علاقة طيبة مع المريض قبل أن يخبره، وهذا قد يستغرق خمس دقائق أو عدة جلسات ويخضع هذا للتقدير، ثم لا بد من التمهيد الجيد للموضوع بأن تشرح له مرضه ببساطة ووضوح، وتشرح له الطريقة التي تم بها التشخيص، ثم يفضل أن تلمح إلى الموضوع ابتداءً ولا تصدم المريض به فجأةً، وربما تدرجت في إعطاء الخبر على أكثر من جلسة تخبره في كل جلسة منها بجزء من الخبر، ولكن من المهم بالمقابل

أن تكـون واضحاً مع المريض وتستخدم معـه مصطلحات واضحة، وتصارحـه بمرضه تماماً ولا تعطيه عبـارات موهمة أو غامضة قد يفهم منها خلاف ما قصدت. ثم بعد إعطاء المعلومة للمريض لا بد أن تصمت قليلا وتعطي المريض فرصة للتفاعل مع الخبر.

وتفاعـل المرضى متباين فبعضهم يبدي عدم الاهتمام، وبعضهم يبدي رفضـ وعـدم تصديق ومعظمهم يُبدون ذعـراً أو تفاعلا كبيرا يظهر على شـكل بـكاء وانفعال نفسـي واضح، وعلـى جميع الأحوال لا بـد أن تمتص انفعـال المريض وتتجـاوب معه بالمواساة والتشجيع ولكـن عليك أن توضح للمريضـ أنه من الطبيعـي أن ينفعل، ومن الطبيعـي أن يبكي، وأن هذا لا يقلل من إيمانه ولا من رجولته ولا من عقله. وبعد أن تستقر حالة المريض النفسيـة ينبغـي أن تشرح للمريضـ ماذا يعنى هـذا التشخيص بدقة من حيـث خطورته وتطوراته المستقبلية وفرص العـلاج وطرقها ومميزات كل طريقـة وعيوبها. بعد ذلك تفسح المجال للمريضـ وأهله أن يسألوا ما بدا لهم ولابد لك أن تتجاوب معهم بشكل صريح وواضح. وقبل الختام يحسن أن تذكر المريض بالله وتذكره بالصبر على المصيبة وأجر ذلك، وأن تقدم لـه الدعم المعنوي الكامل، ثم تختم بأن توضـح للمريض الخطوة القادمة وكيفية الاتصال بك إذا كان لديه أسئلة أخرى.

وفي الكثـير من المراكز الطبية العالمية يكون هناك نظام خاص بإخبار المريضـ لإخبار السيئة، ويتضمـن الفريق طبيبا نفسيا متخصصا في هذا المجـال ومجموعة مـن الاختصاصيـين الاجتماعيين والنفسيـين ووسائل

متعددة لتوصيل معلومات تثقيفية مثل الكتيبات والوسائل السمعية والمرئية وجمعيات دعم اجتماعي وغير ذلك».

الطالب يجلس في كرسيه مشدوها.

ـ «ما بك؟!».

هل كنت تظن الطب يقتصر على فحص المريض، وكتابة الدواء والتباهي بالرداء الأبيض؟ الطب الحقيقي أعمق من ذلك بكثير، إنه التعامل مع الإنسان بكل ما في هذه الكلمات من المعاني والظلال».

«لا تدع الأشياء التي عجزت عن
عملها تمنعك عن الأشياء التي
تستطيع أن تعملها»

جون وودن

ملاحقة السراب

(1)

أشـــكـــو وأشـــكـــر فـعـلـه

فـأعـجـب لـشـاكٍ مـنـه شـاكـر

(المعري)

كان غارقاً حتى أذنيه في كتابة بحث طبي يسابق الزمن في إنجازه.

- «من؟».

يدخل الطبيب المقيم..

- «أعتـذر عن إزعاجـك ولكني أحببت أن أخـبرك بأمر مهم، الخالة منيرة رفضت قسطرة القلب».

- «رفضت القسطرة.

«لمـاذ؟ أمر غريب، لم تُبدِ أيَّ علامات رفضٍ قبل أسبوع عندما مررنا بهـا رأيتها أنا وأنت، ولكن لماذا لم يطلب أطباؤها القسطرة حتى الآن، ألم نرها في الأسبوع الماضي؟».

- «لا أدري».

- «حسنا ذكرني أن نمرّ بها عند جولتنا بالمرضى بعد العصر».

- «السلام عليكم، كيف حالك يا خالة منيرة؟».

- الخالة بصوت منخفض يبدو عليه الغضب والاكتئاب: «الحمد لله».

- «خير يا خالة سمعت أنك غيرت رأيك عن القسطرة.

هنا دخلت ابنتها المرافقة معها إلى داخل الستار المنصوب على سريرها وقالت في عصبية واضحة ورفع صوت: «يا دكتور هذا ليس معقولا، نحن مرميّون منذ أكثر من عشرة أيام ولا أحد سأل عنا ولا أحد عبرنا».

- «كيف يا أختي ما أحد عبركم ولا سأل عنكم؟».

- «يا دكتور، الوالدة دخلت المستشفى من أحد عشر يوما تماما، دخلت لعمل فحوصات عن سبب ضيق التنفس، مضى اليومان الأولان في سين وجيم من الأطباء المتدربين والطلاب، ولم يعمل لها أي شيء، ثم جاء الاستشاري في اليوم الثالث والله لمدة نصف دقيقة وقال: سوف نستدعي طبيب القلب لأنه يوجد اشتباه في القلب.

«بعد اليومين أتيت أنت ودخلت علينا خمس دقائق ليس إلا قلت لنا فيها إنه هناك اشتباه في وجود ضيق في شرايين القلب قد يفسر ضيق التنفس، ومنذ ذلك اليوم إلى الآن لم يأتها أي استشاري ولا نعلم عن نتائج التحاليل والأشعة شيئاً، وفجأة أمس يقولون لنا هيا الآن تنزلين إلى القسطرة، وعندما وصلنا إلى قسم القسطرة اكتشفوا أن الوالدة ليست صائمة وبالعربي هزؤونا كيف إنها ما

تصـوم، وكيف أننا ضيعنا وقتهم وفوتنـا الفرصة على مريض آخر مـع أنه ـ والله ـ لم يخبرنا أحد بالصيـام، والممرضات هن اللاتي أحضـرن الطعام لها. في اليوم التالي صامت من الليلة السابقة إلى الخامسـة عصراً ثم ألغيـت القسطرة واليوم دخلـوا على الوالدة، وكنـت أنـا خارجاً أشـتري لها معجـون أسنان وصابـون وقالوا لها تعالي معنا الآن فـورا وإلا ألغينا القسطرة فطلبت منهم الوالدة أن يصبروا بضع دقائق حتى أعـود فرفضوا، وجاءها الطبيب المناوب بورقة يقول فيهـا وقعي أنك رافضة القسطـرة، وعندما عدت طار عقلـي فقد وقعت على ورقة برفض القسطرة وورقة أخرى لإخراج الوالدة من المستشفى على مسؤوليتها الشخصية».

- «يالله، والله لقد كانت تجربة مؤلمة وقاسية، هذا غير مقبول تماما، علـى الرغم من أنني لسـت المسؤول عن الوالـدة ولا عن علاجها نحن فقط مستشارون في حالتها، ولكن هل تسمحين لي بأن أعتذر لـك وللوالدة عـن نفسي وبالنيابـة عن المستشفـى. ما حدث غير مقبول أبداً».

- «لا خلاص، حنـا خارجين ما نبغى لا طب ولا شـيء، هذا الصحيح تمرضونـه كيف المريض. يا أخي أنـا إنسانة موظفة وعندي أطفال صـارلي أكـثر من عشرة أيـام وتاركة أولادي وعملـي وإلى الآن لم نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام».

- «معك الحق، هذا غير مقبول ولا يرضاه أحد».

(2)

خــل إذا جـئـت يـومــا لـتـســألـه
أعــطـــاك مـــا مــلـكـت كـفـــاه واعــتـــذرا

(مجهول)

- «يــا دكتور هل تعرف ماذا يعنــي تنويم في المستشفى لمدة عشرة أيام في غرفــة مشتركــة فيها ستة أسرة، وكل غرفتــين فيها حمام واحد يعنــي حمام واحــد لكل اثني عشــر مريضا غــير المرافقين، عندما يحين وقت الزيــارة ويأتي ثلاثة زوار فقط يكون في الغرفة الواحدة حوالي ثلاثين شخصاً، فهل هذا معقول؟ بعدين يا دكتور طول الليل كل أربع ساعات تأتــي الممرضة وتفتح الأنوار وتوقظ جميع المرضى لأخــذ الحرارة والضغط فهل كل المرضى المنومين يحتاجون لذلك؟ هل حالة والدتي تستدعي ذلك كل أربع ساعات؟

والأدهــى من ذلك هــو التحاليل، من يوم ما دخلنــا والوالدة تؤخذ منها تحاليل يومية كل يوم الساعة السادسة والنصف صباحاً، تأتي مصاصة الدماء الرَّعناء وتأخذ من الوالدة تحاليل. أين يذهب كل هذا الدم وما الحاجة إليه؟ لا أحد يشرح لنا شيئاً».

- «يا أختي الكريمة، كل الأطباء والعاملون في القطاع الصحي مجمعون على أن هناك تقصيرا في حق المرضى لا يجادل في هذا أحد، ولكن هــذا التقصير في الخدمــة لا يعني بالضرورة إهمــالاً أو تهاوناً من أحــد معين (مــع أن التقصــير والإهمــال موجود طبعــا كما في كل قطاعات المجتمع الأخرى). تأخير التحاليل والأشعة سببه الضغط

الهائل على أقسام الأشعة والتحاليل. هل تعرفين أن معظم أقسام الأشعة في مستشفياتنا تعمل أضعاف العدد المتوسط المعترف به عالميا وبالتالي تتأخر الأشعة والتحاليل لا بسبب الإهمال بل بسبب الضغط الهائل».

- «ولكن يا دكتور ما ذنب المريض؟».

- «صدقت ما ذنب المريض، ولكن هناك أشياء كثيرة هي خارج سيطرة الفريق الطبي والتمريضي ولا يمكنهم إصلاحها و..».

- «يا دكتور الزبون في المستشفى هو المريض وإذا لم يكن الزبون راضيا فإن الخدمة قد فشلت، نحن لا نتكلم عن الفندقة هنا ولا عن نوعية الطعام ولا عن قنوات البث التلفزيوني الداخلية، نحن نتكلم عن طبيب يأتي ويشرح لنا، وعن مواعيد منضبطة، وعن اهتمام بكرامة المريض ووقته وحياته».

- «كلامك صحيح تماماً، وعلى أية حال سوف أكلم الطبيب المشرف على الوالدة الآن وأعدك أن القسطرة ستتم اليوم وتخرج الوالدة غداً بإذن الله وإن شاء الله لا تحتاج إلى المستشفيات مرة أخرى».

- «لا يا دكتور نحن لا نرضى بمجرد الاعتذار، وإن كان هذا طيبا منك جزاك الله خيراً».

- «يا أخت، أنا اعترفت لك بالتقصير في حقكم من قبل المستشفى وذكرت لك أن جزءاً كبيرا منه خارج إرادة الفريق الطبي والتمريضي، وجزء منه يمكن إصلاحه بشيء من المحاسبة

والمساءلة، ولكن برفض الوالدة للقسطرة أنت لا تصلحين الأوضاع ولا تعاقبين المستشفى، ولا تنفعين الوالدة، أنت في الحقيقة تضرينها أكثر، وحتى لو قمت بأخذها إلى مستشفى آخر فإنهم سيعيدون جميع التحاليل والأشعات وسيتأخر التشخيص أكثر، فأرجو منك أن تصبري معنا قليلا وتحتسبي الأجر عند الله ولنقم بالعينة اليوم بإذن الله».

- البنت بعد تردد وتمتمة: «طيب».

(3)

لا خيل عندك تهديها ولا مال
فليسعد النطق إن لم يسعد الحال.

(المتنبي)

قال له الطبيب المقيم، «مهما كنت محامياً متميزاً، لا يمكن أن تكسب قضية خاسرة من جميع الوجوه»، فمتى يكون لدينا الجرأة الكافية لتعرية الحقيقة في مستشفياتنا ووضع نظام محاسبة دقيق ومحايد، يرصد الأخطاء ويحاسب المسؤول ويدفع بعجلة الإصلاح؟

إنَّ في مستشفياتنا صورا رائعة من الأطباء المخلصين العالمين، والفنيين المؤهلين، والإداريين المتفانين والأجهزة التي قلما تتوفر في بلادٍ أخرى حولنا، ولدينا بلا شك طب متميز ومستشفيات هي الأفضل في المنطقة، ولكن الوجه الآخر من الحقيقة لا بد أن نعترف به وهو أن هناك تقصيرا كبيراً أيضاً وهناك خللا لا بد أن تتضافر الجهود على إصلاحه فوراً.

والأهـم من الخلل الطبـي أو الفني هو الخلـل في التواصل مع المريض ووضعـه في الصـورة، فالتعامـل الراقي مـع المريض والحـوار، والتواصل الفعال معه يمكن أن يخفف من آثار أي تقصير طبي أو خطأ فني.

إنـه يشعـر المريض بأنـه محـل العناية والاهتمـام، فمعظـم المرضى يمكنـه أن يتفهم تأخر المواعيـد وازدحام الأسـرّة، والضغط على الأطباء والممرضـين، ولكنه لا يمكـن أن يتفهم أبـداً أو يتقبل أبـداً إهمال الجهاز الطبـي في التواصل معـه وإطلاعه على آخر التطـورات، والاعتذار له عن الخلل والقصور.

ولـو أن كل طبيـب أو عامل في القطـاع الصحي وضـع نفسه في موضع المريضـ وأحس بمعاناته بصدق لحدث تقـدم ملموس في مستوى الخدمة المقدمة حتى ولو لم يحصل تحسن في الإمكانيات..

لنحاول جميعاً.. وسنُفاجأ بالنتائج..

«لا تستح من إعطاء القليل، فإن
الحرمان أقل منه»

(علي بن أبي طالب رضي الله عنه)

أنا لا أشرب

(1)

كيف السبيل إلى طيف يزاوره
والنوم في جملة الأحباب هاجره
الحب آمره، والصون زاجره
والصبر أول ما يأتي وآخره
(أبو فراس الحمداني)

لم يَبْدُ على الرجل الأربعيني الذي دخل العيادة أيَّ شيء ملفت للنظر. بدا مثقفاً ومنشرحاً فقط، دخلت معه امرأة افترض أنها زوجته، أخذ منه قصة المرض وفحصه، وبعد مراجعة التحاليل الخاصة به تبين أنَّ لديه ارتفاعاً في إنزيمات الكبد، شرح له أن الوضع مطمئن، ولكن يوجد التهاب في الكبد ولابد من عمل المزيد من التحاليل لنتعرف على سبب هذا الالتهاب.

خرج الزوجان من العيادة بعد أن شَكَره الرجل وأعطاه موعد متابعة بعد أربعة أسابيع.

بعد يومين، والطبيب خارج من وحدة المناظير متوجه إلى المكتب سمع موظف الاستقبال يقول:

- «الدكتور مشغول».

هذه (الكليشة) الشهيرة التي (يصرف) بها الموظفون المراجعين عن رؤسائهم هي موجودة أيضاً في عالم الطب غير أنه في عالم الطب حاجة المراجع ماسّة.

أتى إلى المرأة وقال لها «خير يا أختي تفضلي».

- «هل يمكن أن أتحدث إليك خمس دقائق؟».

- «تفضلي».

- «أنا كنت في عيادتك قبل أيام مع زوجي فلان».

- «صحيح؟ والله لا أذكر، خير إن شاء الله؟».

- «أريد أن أخبرك ببعض الحقائق التي لم يخبرك هو بها، ولكن أريدك أن تعاهدني بالله ألا تذكرها لأحد أبداً، وألا تكتبها في الملف، وألا تذكر له أنني أتيت أبدا وألا..».

- «على رسلك يا أختي، ما كل هذه التحذيرات، القضية أسهل من هذا بكثير، تفضلي قولي ونحن من أهم واجباتنا أن نحافظ على سرية أخبار المرضى».

- «عندما سألتُ محمداً عن الكحول هل كنت تشك في شيء ما؟».

- «هذا سؤال روتيني، الكحول سبب مهم من أسباب ارتفاع إنزيمات الكبد ولابد أن نسأل المرضى هذا السؤال».

- «يا دكتور والله أنا مني عارفة وش أقول.. أخاف ..».

- «هل الأخ محمد يشرب؟».

- «لا ما يشرب».

- «إذن ماذا؟».

- «يعنى، هو يشرب شوي».

- «كم يعني؟».

- «أستغفر الله، يا رب سامحني والله أنا خائفة عليه».

- «يا أختى، أنت تقومين بالشيء الصحيح، وتسعين لمصلحة زوجك، كم يشرب؟ يعني في العطلات يوم الخميس والجمعة فقط؟».

- «نعم».

- «وهل يشرب أثناء الأسبوع؟».

- «نادراً».

- «وهل تعرفين كم يشرب؟».

- «يشرب كثيرا يا دكتور».

وانفجرت تبكي بحرقة، أعطاها الفرصة لأن تفرغ هذا البركان الهائج من المشاعر المكبوتة.

- «منذ متى والأخ محمد يشرب يا أختي؟».

- «من سنين، من قبل أن نتزوج ولكن أنا ما كنت عارفة ولا أهلي كانوا عارفين، نحن من أسرة محافظة وما كان يمكن أن نزوجه ولكن هذا اللي حصل».

- «وهل وصل معه الحد إلى درجة السُّكر؟».

- «نعم».

- «وهل تمت أي محاولات لتدارك الوضع في السابق؟».

- «والله يا دكتور عجزت معه، أحضرت له الأشرطة والكتب وذكرته بالله وحاولت بكل طريقة ولكن لا جدوى».

- «هل يعرف أحد آخر هذا الموضوع؟».

- «لا، لا طبعاً، أنا نفسي ما عرفت إلا بالصدفة بعد ما صار يرجع سكران تماما وكان في الأول يضحك علي ويقول لي مرهق دايخ..».

- «هل يشرب في البيت؟».

- «أه.. والله يا دكتور ما كان أبدا ولكني صرت أخاف عليه أن يقود السيارة وهو في هذي الحالة فصرت أسمح له أن يشرب في البيت وقلبي يتقطع، ولكن ماذا أفعل؟».

- «يعني هو الآن يشرب في البيت أمامك ويشرب في العطل أيضاً؟».

- «صحيح».

- «هل تتوقعين أن عنده الرغبة في ترك هذه العادة؟».

- «هو يقول أنه قريبا ربنا سيتوب عليه.. يا دكتور أنا خايفة عليه جداً هذا أبو عيالي وبعدين هو في كل شيء آخر ممتاز وحنون وأب مثالي».

- «حسناً لا بد أن نقدم له المساعدة، زوجك بحاجة إلى المساعدة بشكل سريع».

- «لا يا دكتور، لقد اتفقنا ألا تقول له شيئاً».

- «طبعاً، أنا وعدتك وأنا عند وعدي، ولكني سأحاول أن أستخرج هذه المعلومات منه مباشرةً، نحن متمرسون على هذه المواقف، هذا من طبيعة عملنا».

- «والله يا دكتور لقد حذرني أنه سيكون آخر يوم في حياتي إذا خبرت أحدا أني سأكون خائنة إذا أحد عرف لكني لم آت إليك إلا بعد أن استنفذت جميع وسائلي الأخرى».

- «سنجد طريقة بإذن الله».

شكرها على اهتمامها وخرجت من العيادة.

(2)

بلى أنا مشتاق وعندي لوعة
ولكن مثلي لا يذاع له سر
(أبو فراس الحمداني)

ها هو التاريخ يعيد نفسه، لم تكن هذه القصة غريبة عليه، ففي عيادة الكبد كثيرا ما ينفي المرضى أنهم يشربون الكحول، وكثيرا ما تتبين الحقيقة بعد حين، إما عن طريق اعتراف المريض بعد ذلك، أو عن طريق تلميحات بعض الأقرباء. تذكر أن في جعبته أكثر من طريقة لاستخلاص هذه المعلومات من المريض. المشكلة أن هذه القضية حساسة جداً، ومرتبطة بأمور دينية واجتماعية متعددة وليست قضيةً طبية بحتة، ثم إن ثقة المريض بالطبيب في بلادنا مازالت دون المستوى المطلوب، وبالتالي تكون المعلومات التي يدلي بها المريض إلى الطبيب محدودة في هذا الشأن.

يدخل المريض العيادة بعد أربعة أشهر، الاسم عالق في ذهنه، زوجته معه كالعادة لا تتكلم مطلقاً.

- «الحمد لله يا أخ محمد، أظهرت نتائج التحاليل خلو الدم من جميع فيروسات الكبد ولا توجد زيادة في الحديد أو النحاس في الكبد، ولا توجد التهابات مناعية ولا أي سبب واضح لضعف الكبد وارتفاع الإنزيمات».

- «الحمد لله».

- «ولكن الكبد يعاني من التهاب حاد وبدأ فيه الضعف والسبب مازال غير معروف. هل أنت متأكد أنك لا تأخذ أي أدوية يا أخ محمد؟».

- «أبدا».

- «ولا حتى أدوية شعبية؟».

- «أبدا».

- «هل تتعرض لأي مواد كيماوية في عملك أومبيدات أو غير ذلك».

- «أبدا أنا مدير فرع في أحد المصارف».

- «هل يوجد أي أحد من أفراد الأسرة مصاب بأي نوع من أنواع أمراض الكبد؟».

- «لا».

وبعد أن مَهَّد له الموضوع تماماً بهذه الأسئلة كان قد سألها في المرة السابقة؛ قال:

- «والله غريبة !».

- «ما هو الغريب يا دكتور؟».

- «الارتفاع في الإنزيمات من غير سبب».

- «يالله، يمكن تتحسن من نفسها».

- «لا، لابد من معرفة السبب وإلا قد يتعرض الكبد للتلف لا قدر الله، أنت قلت لي بوضوح في المرة السابقة إنك لا تشرب الكحول أليس كذلك؟».

- «أعوذ بالله، طبعا يا دكتور، ماذا تظن في، أنا رجل متزوج وأب لثلاثة أطفال».

اقترب منه في حنو ووضع يده على ركبة محمد وقال:

- «يا أخي نحن هنا في عيادة وأنا من واجبي أن أسالك، أنا لست قاضيا أو واعظا، أنا فقط أسألك من الناحية الطبية البحتة، كل ما يعنيني الآن هو صحة كبدك، وتأكد أن أي شيء تخبرني به الآن سيكون سرا بيننا لا يطلع عليه أحد».

- «لا يا دكتور ما أشرب».

- «أبداً؟».

- «أبداً».

- «ولم تشرب في حياتك».

- «أبدا ولا قطرة».

لم يكن يتوقع أن تفشل المحاولة الأولى لأنها عادة ما تنجح مع معظم المرضى. الزوجة متململة وقلقة جداً.

- «دعني أرى إذا كنا عملنا تحليلا معينا قد يساعدنا كذلك».

بحث في الملف عن تحليل ليؤكد له أنه يشرب

- «هاه وجدته، سبحان الله، حتى هذا التحليل يدل دلالة قوية أن سبب ارتفاع الإنزيمات هو الكحول».

- «التحليل غير دقيق يا دكتور أنا لا أشرب».

- «يا أخ محمد، أنا طبيبك وأعدك بالحفاظ على سرية معلوماتك، ولن يعرف أحد بشيء ولن أكتب شيئا في الملف. ولكني لابد أن أعرف حتى أكتب لك العلاج المناسب».

- «يا دكتور، لا أعرف لماذا لا تصدقني؟ أنا ما أشرب والله ما أشرب».

- «يا أخ محمد صدقني أنا لن أمارس عليك دور الواعظ ولن أتعامل معك إلا في حدود العلاقة الطبية وسأنسى كل شيء عنك بعد أن تخرج من هذه الغرفة، هناك الكثير من المرضى الذين يشربون في هذه العيادة لأنها عيادة أمراض الكبد وبعضهم ساعدناهم وتوقفوا بحمد الله، وبعضهم لا يزال يشرب وما زالت علاقتنا بهم ممتازة ونعالجهم بما يحتاجون، وسيبقى الأمر بين هذه الجدران، أنا أعدك بذلك».

محمد يرتبك قليلا ولكنه لا يرد.

هنا قرر الانتقال إلى بعض الخيارات المؤلمة.

- «إذن لابد من عمل عينة من الكبد للتعرف على سبب المشكلة، طالما أنك لا تشرب وأنا أصدقك، لابد من عمل العينة».

- «توكلنا على الله متى يا دكتور؟».

سبحان الله يتحمل العينة في سبيل إبقاء سره في الكتمان!

يأخذ موعد العينة وينصرف مع زوجته بهدوء..

(3)

لا تعذليه فإن العذل يولعه

قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه

(ابن رزيق البغدادي)

- «دكتور أنا زوجة المريض محمد».

- «أهلاً وسهلاً».

- «يا دكتور لقد أحرجتني مع محمد ذلك اليوم في العيادة لقد بدأ يشك في أني أفشيت سره أنا الآن نادمة أني تحدثت إليك، كيف تفعل هذا ؟».

- «أنا لم أفعل أكثر من أني سألته بإلحاح، كنت سأفعل ذلك على أية حال لأعرف سبب ارتفاع الإنزيمات حتى لو لم تخبريني أنت بأي شيء».

- «ولكنه الآن يشك فيَّ، أنا أريد أن أساعده ولكن لا أعرف كيف».

- «يا أختي، لقد تصرفت تصرفاً حكيما سيحمل زوجك لك هذا الجميل طوال عمره، لا تقلقي».

- «في شيء ثاني يا دكتور بس والله أنا مستحيه منك ووالله لولا خوفي على العيال ما تكلمت».

- «خير إن شاء الله».

- «الله يارب يسامحني والله وحده يعلم إني مغصوبة على الكلام».

- «خير تكلمي».

- «محمد الله يهديه في السابق كان عنده علاقات و..».

- «فهمت لا داعي لأي شرح، وهل توقفت هذه العلاقات أم مازالت مستمرة؟».

- «كل ما أكتشف علاقة يأتي ويأخذني إلى مطعم، ويشتري لي هدية ويطلب مني الصفح والغفران ويقول لي إنه متمسك بي وأن هذي نزوة و..».

- «وأنت، ماذا تفعلين عندما يفعل ذلك؟».

- «أسامحه طبعاً».

- «لماذا؟».

- «لأنه أبو أولادي ولأنه طيّب جدا وأنا ما عندي غيره».

- «هل اعتدى عليك بالضرب أو الإهانة؟».

- «فقط عندما يكون في حالة سكر أما في الحالات العادية فهو حنون ولطيف إلى أبعد حد».

- «أنت امرأة صالحة والأخ محمد محظوظ بك، وبإذن الله سيجعل الله شفاءه واستقامته على يديك. أنا سأركز على القضايا الطبية الآن، نحتاج إلى أن نحلل له في المرة القادمة لنتأكد من خلوه من الأمراض الجنسية، وأما طريقة التعامل معه فسأدلك على معالج أسري متخصص يمكن أن يرشدك إلى أفضل طريقة للتعامل مع المشكلة، وسوف يكتب الله لك وله الخير بإذن الله، المهم ألا تفقدي الأمل».

(4)

آه لو أدركت في لحظتها
أنت كالناس وكالناس أنا
(القصيبي)

- «أهلاً يا أخ محمد».

- «أهلاً يادكتور، بشّر؟».

- «والله يا أخ محمد، ماذا أقول لك؟ العينة أثبتت أن الكبد متأثر بفعل كحول، يبدو أنك كنت تشرب في السابق».

- «قلت لك أنا لا أشرب، هل أنا في قسم الشرطة أم في عيادة طبيب؟ أنا غير مرتاح لك، أنا أريد أن أغير الطبيب سأشتكي إلى مدير المستشفى، كم مرة قلت لك إنني لا أشرب».

- «أخ محمد، كما قلت لك من قبل، أنا لست هنا في مقام الواعظ أو الناصح أو المرشد الاجتماعي، أنا هنا طبيب ودوري هو علاجك وإذا لم تعطني الفرصة لمساعدتك فلن أستطيع أن أفعل لك شيئاً».

خرج محمد بعصبية كبيرة وخرجت زوجته خلفه مذعورة.

(5)

ولئن غدوت من الهموم سليمة

فلقد علمت بأنني لم أسلم

ولئن أطعت العاذلات فإنني

خالفت قول عواذلي واللُوَّم

(أبو فراس الحمداني)

المكتب يبدو كئيبا اليوم، هناك عدد كبير من التقارير الطبية التي لا بد أن تكتب، عنده محاضرة لابد أن يحضرها، وبحث متأخر لا بد أن ينهيه، وعيادة تكشر له عن أنيابها بعد أقل من نصف ساعة.

يقترب من العيادة بخطاً متثاقلة، يجد عشرة أشخاص عند الباب، واحد أضاع موعده ويريد موعدا جديدا، وآخر يريد تقريرا طبيا حديثا ليسافر إلى خارج المملكة للعلاج، وغيره أتى بأمه وهي في حالة يرثى لها وبدلا من أن يأخذها إلى الإسعاف أتى بها إلى العيادة، ووو.....

امرأة عند الباب على الطرف لم تتكلم شيئاً.

عاين مريضاً أو مريضين، دخلت امرأة وجلست من غير استئذان

- «خير يا أختي عندك موعد؟».

- «أنا زوجة محمد يا دكتور».

- «عفوا من محمد؟».

- «ألا تذكره يا دكتور محمد جاءك قبل أكثر من سنة وكان يشرب كحول وحدثتك عنه و..».

- «تذكرت، أهلا يا أختي كيف الأخ محمد خرج من عندي مُغْضّباً على ما أذكر من فترة طويلة».

- «والله يا دكتور أنا جايه أشكرك».

- «على ماذا؟ على أني فشلت في إقناعه وأخرجته مغضباً من العيادة؟».

- «لا، على أنك دللتني على المعالج النفسي».

- «بشري، ماذا حدث؟».

- «يا دكتور، محمد خرج من عندك في وضع متوتر جداً، ركبنا في السيارة من دون أن يتكلم بكلمة واحدة، وأخذ يسرع سرعة جنونية وأنا قلبي معلق في السماء، وما أن دخلنا إلى المنزل حتى أخذ يصرخ في وجهي، عملتيها يا خائنة، أنتي اللي قلتي للطبيب أنا عارف وفاهم تحسبيني غبي، وأخذ العقال ولم يترك جزءاً من جسدي إلا ونال منه. أخذت أصرخ وأصرخ حتى خرج من المنزل في وضع هستيري، وأبحرت في محيط البكاء الذي لم أعرف مثله في حياتي، وأخذت أتضرع إلى الله أن يحفظه ويحميه وأن لا يرني فيه سوءا وأن يهديه إلى الاستقامة. وأظن أنه أغمي علي. اختفى محمد ثلاثة أيام وأنا على نار من قلقي عليه، لم أبلغ أحدا ولم أتصل بأحد حتى أطفالي لم يحسوا بشيء وقلت لهم إن أباهم مسافر، وسبحان الله كنت متأكدة من أنه سيعود».

وفعلاً عاد بعد ثلاثة أيام وهو في حالة سكر كامل ونام قرابة يومين. وعندما استيقظ وجد الطعام جاهزاً، والأطفال يرحبون به وتغدينا غداء عائلياً جميلاً.

ومن تلك اللحظة وكأني به يتحسن، لم يعد يخرج مثل السابق ولم يعد عصبيا مثلما كان وأعتقد أنه خفف الشراب أو قلل كثيرا وأملي بالله أن يكون قد توقف».

- «وهل ذهبت إلى المعالج النفسي؟».

- «نعم ذهبت بعد ذلك واتفقنا على خطة معينة أحاول به إقناعه على الذهاب معي ولكني لم أجرؤ على الحديث معه في الموضوع بعد وخاصة بعدما بدأ يتحسن هكذا».

- «يبدو أننا في الطريق الصحيح، استمري فيما أنت فيه، ولكن لا تقطعي العلاقة بالمعالج النفسي».

خرجت المرأة بمعنويات عالية وروح متفائلة وقالت:

- «دكتور أرجوك، لا تخبر محمد إذا رأيته بأي شيء هو لا يعرف حتى الآن أنني أخبرتك ولا يعرف أنني أتيتك..».

سبحان الله، سرح في شريط الذكريات الغريب، وسرح بخاصة في عيادة الأمس عندما دخل عليه مريض قائلاً:

- «أهلا يا دكتور هل تذكرني؟».

- «نعم أذكرك جيداً، الأخ محمد تفضل أنا لا أنسى المرضى الذين أفشل معهم أبداً».

- «لا والله يا دكتور لم تفشل أبداً، أنا لم أكن متفهماً».

- «أنا عملت تحاليل أمس وأرجو أن تراجعها يا دكتور».

- «التحاليل تبدو أفضل ولكن الكبد لا يزال متأثرا، هل لا زلت تشرب؟».

- «رجعنا يا دكتور!».

- «يا أخ محمد، لا يمكننا حل أي مشكلة إذا لم نواجهها ونعترف بها».

- «يسلم عليك الدكتور فلان» (طبيب نفسي).

- «أين رأيته؟».

- «في عيادته الخاصة».

- «وكيف عرفت عنه».

- «سألت».

- «ولماذا ذهبت إلى طبيب نفسي؟».

- «حصل خلاف (بسيط) بيني وبين زوجتي عندما خرجت من عندك المرة السابقة، وسوس لي الشيطان أنها شوهت سمعتي وشككت في أنها قالت لك إنني أشرب، غبت عن البيت ثلاثة أيام رأيت فيها حياتي تنهار أمامي، سمعتي تتشوه، صحتي تذهب، زوجتي تفقد، عندها قررت القرار الصعب وعزمت على الله».

- «ماذا قررت؟».

- «أنت عارف يا دكتور أرجوك لا تعذبني. وكان هناك تجربة ناجحة لأحد الزملاء مع هذا الطبيب فذهبت إليه، لقد اكتشفت أشياء كثيرة لم أكن أعرفها عن نفسي، ومن تلك اللحظة وأنا بخير».

- «الحمد لله ، وأنا أهنئك على هذه الخطوة الكبيرة، والتي هي بلا شك أكبر الخطوات ولكن أمامك خطوة أكبر وهي الصمود أمام الإغراءات التي ستأتيك بالأكوام».

- «فعلاً؛ قال الدكتور لي ذلك، قال إنّ الكثيرين يعودون بعد شهر أو شهرين ولكني لن أعود».

- «بإذن الله».

- «شكراً».

- «مع السلامة أريد أن أراك بعد أربعة أشهر ونعيد التحاليل وأنا متأكد أن كبدك سيكون طبيعيا عندئذ».

- «إن شاء الله.. أوه دكتور بالله في الموعد القادم أرجو ألا تخبر زوجتي بأي شيء، هي لا تعرف أنني أتيت إليك ولا تعرف أنني ذهبت إلى الطبيب النفسي، مسكينة يكفيها هم البيت والأولاد ما ودي أشيلها همي بعد».

- «لن أفعل لا تقلق».

دارت به الغرفة، ما أعقد هذه النفس الإنسانية وما أعجب دهاليزها. وما أعسر هذه المهنة وما أصعب تضاريسها.

أحسن أنه مستودع أسرار.

«بعد أن يصعد الإنسان أصعب جبل
يواجهه، يجد بعد ذلك جبالا أخرى أصعب»

نيلسون مانديلا

بعد دقائق.. ستنام

(1)

وافـتـضـاحـي فـيـه مـا أطـيـبـه
كـان مـا كـان ويـدري مـن درى
(البهاء زهير)

تردد كثيرا قبل أن يكتب هذه المذكرات حول تجربته مع المرض. تلك الوعكة الصحية التي عانى منها كثيرا ثلاثة أشهر كاملة، هو يرجو من الله أن تكون كفارة للذنوب ورفعة في الدرجات وطريقا لي إلى التوبة والاستقامة.

ولكنه وبعد تفكير واستخارة قرر أن يقدم ويكتب هذه القصة. ذلك لأنه أحس أنه استفاد من هذه التجربة المؤلمة التى مر بها فوائد متعددة لا يمكن أن يمر عليها دون أن يستخلصها. ويعتقد جازما أنها ستفيده بإذن الله فيما كتب الله له من مستقبل كما يعتقد جازما أنها ستفيد القارئ الكريم. هذه الفوائد كان منها الشيء الكثير على الصعيد الإيماني والنفسي والتي سيستفيد منها كل من قرأها، وكان منها الكثير على الصعيد الطبي والتي سيستفيد منها زملاؤه الأطباء وإخوانه المرضى. والعاقل من اتعظ بغيره واستفاد من تجارب الآخرين. وهي في نهاية المطاف تجربة إنسانية مرت بإنسان، فيها من لمحات القوة والإيمان والعزيمة، وفيها من سقطات الضعف والجبن والانهزام، وبين هذه وتلك كانت هذه الذكريات.

(2)

إن يوما واحدا أسعدني
جمع الأفراح طرا من شتات
وهو عمر كامل عشت به
كل أعمار الورى مجتمعات
(إبراهيم ناجي)

الطائرة تستعد للهبوط في مطار الملك خالد الدولي بالرياض قادمة من لندن ومن قبلها من كندا. الأطفال بدؤوا يتضجرون بعد رحلة ماراثونية. كانت تلك الأسابيع الثلاثة من أجمل الأيام التي قضتها أسرته على الإطلاق. قضاها يسترجع الذكريات العزيزات في مواطن الدراسة، متنقلا بين مدينة كندية إلى أخرى، «هنا أكلنا ذلك الإيسكريم اللذيذ»، «هنا سقط عمر»، «هنا قابلنا تلك الكندية المسلمة...»، هنا وهنا.. ذكريات جميلة في كل مكان. كانت إجازة كما ينبغي أن تكون الإجازة، كان الجو فيها رائعا، استمتعوا فيها بالمحيط الهادي في (فانكوفر) كما ينبغي أن يكون الاستمتاع، واستمتعوا فيها بالجبال الخضراء الباسقات في (كالغاري). والتقوا فيها بالإخوة الأحباب الذين جمعتهم بهم سني الغربة الجميلة ممن لا يزال يدرس في تلك المدن أو من الإخوة والأخوات غير السعوديين الذين استقرت بهم الأوضاع في تلك الديار. اشتروا مخزون سنة من الملابس المصنوعة لتعيش، وتجولوا في بعض الأماكن التي لم تكن موجودة عندما كانوا في البلد، وكانت له صولات وجولات في المكتبات العامرة ، كما زار أساتذته وزملاءه الكنديين الذين تدرب على أيديهم

ومعهم في تلك الفترة الذهبية من حياته. وأجمل ما في هذه الرحلة، أنه تفرغ لأسرته تماما، تعرف فيها على جوانب جديدة من زوجته وأطفاله، جوانب لم يكن يعرفها من قبل. كان وقته كله معهم يتحاورون في كل فكرة ويتشاركون في كل خاطرة يفرحون سويا ويلهون سويا وينامون سويا، لم يشعر في حياته قط بأنه قريب منهم مثلما شعر في تلك الأيام.

(3)

إني لأعلم واللبيب خبير
أن الحياة وإن حرصت، غرور
(المتنبي)

بعد يوم من العودة، بدأ يشعر بشيء من الغثيان الذي بدأ يزداد يوما بعد يوم. وما أن عاد إلى العمل بعد ثلاثة أيام مفعما بالنشاط مليئا بالحيوية والهمة لبدأ سنة جديدة يؤمل أن تكون سنة إنجاز بدأ يشعر أن شيئا ما قد أصاب جهازه الهضمي. استفراغ مستمر وغثيان لا ينقطع وآلام مبرحة في البطن وانتفاخ مع أقل شيء يأكله. احتمى كما ينصح مرضاه، وجلس في البيت ينتظر أن تمر هذه الأيام، «ربما أكلت شيئا»، «ربما أخذت بردا»، وتوالت التفسيرات البدائية التى عادة ما تصيب في مثل هذه الأمراض العارضة. ولكن الأعراض استمرت أسبوعا، كان خلاله يحاول الذهاب إلى العمل ولكن ذلك بدأ يصبح معاناة حقيقية حيث أنه لا يستطيع أن يأكل أو يشرب شيئا مطلقا، وبدأ يشعر بالوهن والضعف وبدأ وزنه ينقص بشكل سريع ومخيف.

وبعد مرور أسبوعين من الحمية والتشاغل عن الأمر بالأفكار التفاؤلية بـدأ يشعر أن شيئا ما لم يعد صحيحا في جسمه وأنه لا بد أن يقوم بإجراء بعض الفحوصات. فأخذ زمام المبادرة وقام بعمل بعض التحاليل لنفسه والأشعات التى كانت كلها سليمة. وبعد أسبوع آخر من استمرار الأعراض وتناقص الوزن قام بعمل أشعة مقطعية ومنظار هضمي علوي وقد قرأت الأشعة أنها طبيعية. ولكن الأعراض بدأت تتزايد وحياته بدأت تنزلق إلى مريض مطروح في الفراش لا يستطيع أن يأكل شيئا إلا بعض السوائل، تبدو عليه علامات الإعياء ولكنه يحاول أن يجالد نفسه في عمل بعض المهمات التى لا تقبل التأخير، ولحضور بعض العيادات المهمة، وحضور بعض الاجتماعات التى لا يمكن أن تقوم بغيره، وتوصيل أبنائه إلى المدرسة. ولكنه بدأت يحس أنه نفسيا بدأ يهتز من الداخل وبدأ القلق يتسرب إلى نفسه وبدأت الأفكار السوداوية تطبخ على نار هادئة في أنحاء فؤاده، إنها النهاية، لا بد أن هناك مرضا خطيرا أو ورما منتشرا، ولا بد لك أن تستعد!

وكان رمضان على الأبواب وهو في حال لا يعلمها إلا الله، وعندها أخذ جسمه المتهالك وذهب إلى صديقه طبيب الجهاز الهضمي، وقال له: «أنا المريض وأنت الطبيب، أنا أشعر أن صحتي تتسرب من بين يدي وأنني أذوب كما يذوب قالب الثلج ولكن جميع التحاليل والأشعات التي عملت حتى الآن طبيعية فماذا أفعل؟». ورأى في عيني صديقه الطبيب شيئا من الاستغراب ، كأنه يقول : «لماذا تهول الأمر؟ كلها أعراض بسيطة ونقص الوزن هو بسبب عدم الأكل وسنكتشف السبب وتعالجه إن شاء الله.»

وفي هذه اللحظة، ولأول مـرة، اكتشف الثغرة النفسية التي يمكن أن تتولد بـين الطبيـب والمريض، المريض يـرى الدنيا من خلال نافـذة صغيرة هي الأعراض التي يشعر بها، وتتفاعل في نفسه عوامل كثيرة من الخوف والقلق والتشـاؤم تؤدي به إلى وضع نفسي مختلف تماما عن وضع الطبيب، الذي لا يمثل له المريض الذي أمامه سوى مريض آخر يختلف قليلا عن المريض الذي قبله والمريض الذي بعده. اقترح طبيبه أن يقوم بعمل أشعة بالصبغة للجهـاز الهضمي كله حتى نتعرف على السبـب. وبالفعل، في اليوم السابق لرمضـان قام بعمل هذه الأشعة وتبين أن هناك مشكلة في الأمعاء الدقيقة حيـث قدر الله أن يكون هناك فتق في الغشـاء المغلف للأمعاء خرجت منه معظـم الأمعاء الدقيقـة إلى التجويف البطني ممـا أدى إلى تكدس جميع الأمعـاء في كيس صغير وبالتالي تنسد الأمعاء كل آونة وأخرى عندما يأكل ويسبب ذلـك الأعراض المذكورة. «والحل يا نطاسـي الجهاز الهضمي؟»، «الحل هو الجراحة!».

عندمـا طرقـت هذه الكلمـة سمعه لم يشعر بـأي مشاعـر إيجابية أو سلبيـة بـل شعر في بـادئ الأمر بالراحـة لأن سبب المشكلة قـد عرف وأن حلهـا في الطريق بإذن الله. ومـا أن عاد إلى البيـت واستوعب الأمر حتى شعـر بالخوف الشديـد والقلق يعصف بـه عصفا ، كيف ستكـون العملية ومن يعملها وما أخبار التخدير والمضاعفات والمحتملات وغير المحتملات، وعاش ساعة مـن الهيجـان العاطفي والعصـف الذهني مـع براكين من الخـوف والهلـع والقلق لا يعلمهـا إلا الله. وكانت زوجتـه تجلس إلى جواره

معظـم الوقت تهدئ من روعه وتشحنه بالأفكار الإيجابية شحنا وتشد من أزره حتى هدأ قليلا.

بعدها اتصل على أصدقائه الجراحين ورشح لنفسه طبيبا حاذقا لعمل العملية التي يمكن أن تتم نظريا بالمنظار الجراحي وهو بارع في استخدامه. وفعـلا تكلم معه واتفقا على موعد يحضر له فيه الأشعات. وكانا يومين لم يعشـ مثلهما في حياته، ساعات من الذعر والخوف والقلق والتوتر، تتلوها ساعات من الهدوء والرضى والتوكل والانشراح.

ونوم ليلة العملية. وفي تلك الليلة أحس بكثير من التجلد والتوكل وصلى مـا كتب الله له أن يصلي من الليل حيـث كانت ليلة السادس من رمضان، ثـم فوجئ بطبيبه الجـراح يأتي في الليل ويطمئن عليـه ويشرح له العملية بالتفصيـل ويوقعه على إقرار الموافقة لأداء العملية. وأعجبه فيه أنه تعامل معـه كمريضـ وذكر له المضاعفـات الممكنة وأجاب عن جميـع أسئلته ولم يفترض أنه يعرف كل ذلك. وبعد أن تركه عجب أنه استسلمت لنوم عميق لا يدري من أين هَلَّ عليه.

في الصباح كان الجناح الذي نوم فيه كخلية النحل وتم تجهيزه للعملية وأخـذ إلى غرفـة العمليات. وكان قـد أعـد الأذكار والأوراد التي سيقولها قبل التخدير ولكنه ومع هول الموقف لم يتذكر إلا شيئا واحدا، أية الكرسي والدعـاء المأثور: «باسـم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم». وقد تعجب من أنه كان مطمئنا جدا ومرتاحا جدا مع أنه قضى أياما يعيش القلق من هذه اللحظة العصيبة في حياة كل مريضـ والتي لم يمر بها من قبل ولكن عندما جاءت اللحظة لم يشعر بأي

خـوف أو قلـق فلله الحكمة البالغـة في هذه النفس الإنسانيـة ودهاليزها. ويذكر أنه كان يمازح طبيب التخدير وكان بحق مرتاحا ومطمئنا. وآخر ما يذكـر أن طبيب التخدير يعطي الأوامر للممرضة بحقنه بدواء معين وترن في أذنيـه كلماته التي خرجت من لسانه كأي كلمة ينطق بها آلاف المرات : «بعـد قيل ستنام»، ولكنها كانت عليه كلمة لها بال وأي بال، كان يعرف أنه سيستسلم بعدها لنوم عميق قد يصحو منه وقد لا يصحو.

(3)

ويغلبني ضعفي وخـوفي مـن الـردى
ومـا في بنـيـات الـزمـان مـن الخـب
فـألجـأ لـلـقـرآن في حـومـة الجـوى
أداوي بـه دائـي وأجـعـلـه طبـي
وأدعـوه في غـور الـدجـى متضرعا
أردد في سـري وجـهـري:يـا ربـي

(الأميري)

أول شـيء رآه بعـد الإفاقة هو زوجته وأبوه وأمـه. شعر أنه بخير وحمد الله أن تلك الرحلة المخيفة في دهاليز التخدير انتهت إلى حيث بدأت : «أنا هو أنا، ومن حـولي هم من حولي». وحاول أن يختبر ذاكرته فتذكر الكثير مـن الأحداث فحمد الله أن الذاكرة تعمل وأن الوعي قد عاد. ما أجمل أن

يكون الإنسان واعيا ولو بالمعنى العضوي فقط ولكن ما أروع أن يكون واعيا بجميع المعاني الأخرى !

وكان يشعر بالصحة وكان يمازح من حوله في انشراح كبير وعاد إلى الغرفة رقم 6 في جناح (ج) ، وقد كانت مفارقة عجيبة فهذا هو جناح الجراحة وهو الجناح الذي يمر به أحيانا عندما يطلب منه معاينة مرضى الجراحة. وبعد انتهاء تأثير البنج بدأ يحس بآلام مبرحة في البطن تمنعه من الحركة وفسرت له تلك الآلام أنها بسبب الغاز المتبقي في التجويف البطني بعد عملية المنظار ولم يحذره أحد لتوقع هذا الشيء من قبل، ربما افترضوا أنه طبيب ويعرف هذه الأشياء. وكان اليوم الأول شاقا حيث حدث أن استعجلوا في إحضار الطعام له وأحس بآلام مبرحة في البطن واستفراغ وانتفاخ شديد اضطروا معه إلى إيقاف تناول الأطعمة والأشربة تماما لمدة يومين. وقد تدفق عليه الإخوة والأحبة الأصدقاء من اليوم الأول وعلى الرغم من أنه لم يكن في صحة تسمح له بأن يستقبل أحدا إلا أن توافدهم وتكاثرهم حوله كان له أثر كبير في إلهائه عما يعانيه. وكان طبيبه الجراح يمر عليه ثلاث مرات يوميا في الصباح وقبل أن ينصرف وبعد صلاة التراويح. وقد سأل رئيسة الممرضات إن كانت هذه رعاية خاصة به بسبب أنه طبيب وزميل فأكدت له أن هذا روتيني في جناح الجراحة في هذا المستشفى، ولم يصدقها! وأنَّ الهاتف من كثرة اتصالات الأحبة والأصدقاء وامتلأت الغرفة ليليا من كثرة الزوار. ومع ما كان يسببه ذلك له من ألم عضوي حيث يحتاج إلى الجلوس والمصافحة واستقبال الزوار فإنه كان يملأ قلبه بالرضى من محبة الناس ودعائهم له بالشفاء.

ومـن الطريـف أنه كان قد أدخـل مريضا إلى المستشفـى قبل أيام من العمليـة وكانت حالته حرجة، وطبعا بسبب العملية كان يتابعه طبيب آخر، ونسـي أمره مع انشغاله بالعملية ، وكان من عجائب القدر أن غرفته كانت بجـوار غرفتـه في نفس الجناح، فمر بـه في اليوم التـالي للعملية وفوجيء المسكين بـأن رآى طبيبه يلبس ملابس المستشفـى (المفتوحة من الخلف!) ويجر بجواره العمود الشهير الذي تعلق به السوائل الوريدية ويمشي منحنيا في أزقـة الجناح. وقد كان في هذا الموقف عبرة بالغة له ولمريضه فسبحان مقلب الأحوال ومصرف الأمور.

(4)

تـصـفـو الـحـيـاة لجـاهـل أو غـافـل
عـمـا مـضـى فـيـهـا ومـا يـتـوقـع

(المتنبي)

وعندمـا استقـرت أحوالـه بفضـل الله ومنتـه، أذن لـه بالخروج من المستشفـى وخرج بحمـد الله منشرح الصـدر شاكرا لأنعـم الله متفائلا بالمرحلة الجديدة. وقاد سيارته بنفسه إلى المنزل. وفي المنزل، وجد أطفاله قـد زينوا المنـزل ووضعـوا البالونات والزينـات في كل أرجائـه واستقبلوه بالنشيـد الجميـل «هيلا هيلا هيلا هب ماما وبابـا رمز الحب» وتقاطرت دمعات حرى من مقلته، وشعر بدفء العائلة ونبض الحب كما لم يشعر به مـن قبل وحمـد الله من سويداء قلبه على نعمـه المتتابعة وآلائه الجسيمة. وجلـس مع نفسي قرابة الساعة يتأمل تجربة المستشفى والعملية، يالها من تجربة لم تخطر على البال.

وتتابعت الأيام وبدأ الصيام، وكان يتحسن تحسنا بطيئا جدا لا يكاد يذكر فالانتفاخات الشديدة مازالت تعذبه، والغثيان ينكد عليه صفو الحياة، وآلم البطن والظهر مستمرة. وبين تطمينات أطبائه ودعم من حوله بدأ يشعر ببعض التحسن التدريجي. وفي هذه الفترة أحس فعلا بدعم من حوله، وعلى رأسهم زوجته التى تحملت معه الكثير وكانت معه في كل لحظة تسانده وتكفكف همه وتغمره بحبها وحنانها. وكذا والده ووالدته اللذان كانا معه في كل خطوة مؤازرين وداعيين، وأخواه وأخته وزوجها، وأصدقاؤه الذين اكتشف أنهم عدته بعد الله وعرف قيمتهم الحقيقية. كيف تغيرت هذه المعاني في حسه من علاقات اجتماعية عادية يحس بها كل أحد إلى قوارب نجاة لولاها بعد الله لما استطاع أن يتخطى هذه المحنة التي مرت به؟

(4)

والزمان الذي دفناه ظهرا

أترى يرجع الزمان الجميل؟

(القصيبي)

جلس في مكتبه في المنزل بعد صلاة الفجر، ومرت هذه التجربة أمامه كأنها شريط فيديو مفصل، وأخذ ورقة وترك القلم يستلهم العبر ويتعلم الدروس، كتب :

«حياة الإنسان مجموعة تجارب، يمر بها فتصيغه صياغة. هذه التجارب تترك فيه آثارا فكرية ونفسية تؤثر في كيانه كله وتتحكم في استجابته وتفاعله مع التجارب المستقبلية، والحقّ أقول: إن تجربة المرض

التـي مرت بي كانت بحق تجربة مؤثرةً جـداً في حياتي، حيث إنني لم أكن في حياتي كلها أعرف للمرض معنى على النطاق الشخصي غير العوارض التـى تعترض جميع الناس، وكنت مغرورا بالصحة والعافية، هذه التجربة ولدت عندي تفاعلات كثيرة، بعضها إيجابي وبعضها سلبي.

مـن أهم ما استفدته من هذه التجربـة أن الدنيا متقلّبة لا تدوم على حـال فالتبدل العجيب السريع الذي حصل في حياتي من قمة السعادة في رحلـة ممتعة في مواطن الدراسـة والذكريات الجميلـة في كندا إلى قمة الإحباط واليأس، وعـدم القدرة على أكل شيء أو شرب شيء، فيه عبرة للمعتـبر. وقد عشت لحظـات أشعـر بالتعاسة الحقيقية وفقـدان الأمل والحسـرة واليأس وقـد ملأت كل جوانـب نفسي، لقد كنت مـلء السمع والبصـر، أروح وآتي، منشغلاً بعشرات المشاريـع، مهتماً بمئات الأفكار، وكنـت لا أفكـر في أمر الصحة، آكل ما أشاء مكـثرا ومسرفا، ولا أنام إلا القليـل، وأركض في الأرض في كل اتجاه لا ألوي على شـيء معتمداً على دوام النعمـة، ومتكئاً علـى صحةٍ لن تزول، فإذا بـي لا أستطيع أن أدخل اللقمـة إلى جـوفي، ولا أستطيـع أن أذهـب إلى عيادتـي، ولا أستطيع أن أهنـأ بشيء من شدة الكـرب والمرض وعرفت الآن، أنّ علـى الإنسان ألا يغـتر بهذه الدنيـا التي من أمّن لهـا غدرت به، هذه الدنيـا لا تدوم على حـال وإذا أعطتك شيئا أخـذت منك أشياء، ولذلك إذا تعلقت بها شديد التعلق ووثقت بها عظيم الثقة وركنت إليها كليا، لا تلبث أن تنقلب عليك، فتتبـدل حالك، وتتغـير أحوالك، وتحس عندها بالمـرارة، وبالمقابل، فإن علـى الإنسـان أن يكـون متفائلاً واثقاً بمـا عند الله مؤمـلاً في مستقبله

منشـرحَ الصدر لكل ما ينتظره، لا يسمح للأفـكار السوداوية أن تسيطر عليــه ولا يستسلم للخوف والقلق من المستقبل، والتوازن بين عدم الركون للدنيا وبين التفاؤل بالمستقبل هو المعادلة الصعبة التى يبنغي على العاقل أن يتقنها ، ومعظم الناس ميالون إلى أحد طرفي النقيض دون الآخر.

(5)

فتمتع بالصبح ما دمت فيه
لا تخف أن يزول حتى يزولا

(إيليا أبو ماضي)

فإذا كنت في أيام السعادة والهناء فبالله عليك تذكر حقيقتين أقتطعهما لك من تجربتي:

(1) اشكـر الله تعالى على نعمته التى أولاك. وشكر الله يكون باللسان بأن تكرر دائما الأدعية والأذكار التي فيها تمجيد لله وشكر له على نعمــه، وشكر بالقلب بأن تعترف أن هــذه النعم هي من الله محض فضلــه ومنتــه ورحمته بك، وحتــى ما كان منك مــن الجهد والعمل الذي تظن أنه أوصلك إليها فهو توفيق منه حرم منه غيرك، فاملأ قلبك بحبه وشكره على ما أنعم به عليك.

ويكــون الشكر كذلك بالعمل، بــأن تستعمل هذه النعم في طاعة الله ونفع الناس، ما أجبن وأرذل تلك النفس التي يمن الله عليها بالنعم ويغدقهــا عليها حتــى كأنها تسبــح فيها، ثم تصرفهــا في معصيته وأذيــة خلقــه وتعكير ما حولهــا، اصرف هذه النعــم في طاعة الله،

في إسعاد نفسك وأسرتك، في تطوير مجتمعك، في مد يد العون لغيرك، في صقل تجاربك، في أي شيء نافع ومفيد.

(2) استمتع بالصفو والهناء قبل أن يزول، فما أتعس من يعكر صفو أيامه الجميلة بالمعكرات التافهة فينكد على نفسه ومن حوله لأتفه الأسباب وأقل الأمور، يا أخي أيام السعادة والهناء معدودة فاستمتع بها حتى الثمالة، أسعد قلبك المجهد بأنواع المتع المباحة، وأسعد من حولك بالانشراح والرضى والسعادة، ولا تسمح لشيء صغر أو كبر بالتنغيص عليك، ولا تسمح لفكرة مهما كانت ضاغطة بتعكير صفو حياتك، وأوصد الباب أمام كل خاطرة سلبية مثبطة، أو فكرة معكرة، وتفاءل بالخير، واصنع الحياة، واستمتع بكل لحظة من حياتك، أرجوك!

ومما تعلمته من هذه التجربة المعنى الحقيقي للدعاء. فبسبب سوء الحالة النفسية وتطاول الأعراض والشعور بالشلل التام كنت كثيراً ما أدعو الله تعالى أن يفرج عني همي وغمي، وأن يشفيني من مرضي وأن يرفع عني البلاء، وجربت لأول مرة في حياتي الدعاء من سويداء القلب، ذلك الدعاء الذي يعتصر القلب اعتصارا، الدعاء الذي تشارك فيه خلايا الجسم كلها وذرات النفس جميعها، الدعاء الذي تهتز له أركان الجسم وتختلط كلماته بملوحة الدموع وتسمع صداه في السماء قبل أن تكمل الكلمات، هذا النوع من الدعاء تجربة وجدانية متميزة، هي اتصال روحي عجيب بين الأرض والسماء، تخرج فيه من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن تلبكات الحياة إلى رحاب الله، إنها تجربة تدعك بعدها وكأنك اغتسلت بماء اليقين،

وتطهـرت بنور الإيمان، وتدثـرت ببرد الصلة، وكانت هـذه تجربة لم أمر بها في حياتي من قبل على الرغم من مداومتي على الدعاء في حياتي كلها وحفاظي على الأذكار والأوراد الشرعية.

(5)

إني لأجـبن عـن فـراق أحبـتـي
وتحـس نفسـي بالحمـام فـأشـجـع..

(المتنبي)

ومما تعلمته من هذه التجربة أن أعرف أولوياتي الحقيقية في الحياة. فـإن الإنسان بدافع حبه للحياة وملاحقتـه لها في كل مكان ينسى أحيانا بعض المعاني التى تمثل بحق جوهره ومعنـى حياته، وينشغل عنها بأمور يظنهـا في وقتهـا مهمة، ولكـن تجربة كهـذه تكشف عنـه الحجب وتريه الحقيقيـة بيضـاء ناصعة، وقد تحدثت أعلاه عن معـان جليلة في معرفة حقيقـة الدنيا وتقلبهـا وأنها لا تدوم لأحد، ولكن مـن المعاني التي تبدت أمامـي بوضوح جديد أهمية الأسرة الصغيرة ومعناها في حياة الإنسان، هـذا المعنى الذي نراه يضمر أمام ناظيرنا في مجتمعاتنا الشرقية والذي يـكاد يكون قد ضمر تماما في المجتمعـات الغربية، عندما كنت أجلس في البيـت كنـت أشعر بمعنـى الأسرة وكيـف أنها بحق الحاضـن الحقيقي للإنسـان، والسائد أن الأب والأم هما الحاضنان للأطفال ولكني في هذه التجربة أحسست أن الزوجة والأطفال كانوا بحق محضني ومستقري، كم كان ممتعا أن أجلس مع أطفالي الصغار أشاركهم همومهم ويشاركوني

همومي، كانوا يدعون لي إذا رأوني في ألم أو مرض، وكانت ابنتي الصغيرة تضع يدها على بطني وتقول: «يا رب أشف بابا»، وكانت زوجتي كالنحلة في خدمتي ورعايتي في كل ما أحتاج، وكان جوا يتقاطر حبا وأُسرية، شعرت فيه أنني محور اهتمامهم ومصدر سعادتهم وحلقت في آفاق من السعادة والطمأنينة لم أعرفها من قبل، ومما فتح عيني أكثر على هذا المعنى الذي يغفل عنه الكثير تلك الرسالة الإلكترونية التي أرسلها زميلي (إيان) من كندا، يذكر لي أنه مرض قبل ثلاثة أشهر، وأنه لازم المستشفى شهرا والبيت شهراً، وأكد لي متألما ومعانيا أنه قد زاره في المستشفى أول يومين بعض أصدقائه الذين لا يجاوزون الخمسة وأنه لم يزره في البيت أحد، وأنه كان يتصل بمطعم البيتزا يوميا ليحصل على غدائه وعشائه. وكان في معاناة معنوية حقيقية. وقال لي بالحرف الواحد بعدما أخبرته أنني توعكت قليلا قال: «على الأقل أنت لديك أسرة تهتم بك أما أنا فلا شيء». وكان درسا بليغا، ولا أنكر أن كثرة العلاقات الاجتماعية في بعض مجتمعاتنا والمبالغة فيها قد يكون سبب إزعاج وتضييع للأوقات وإهدار للطاقات ولكن الدعم الأسري وإحساس الإنسان أنه مقدر ومحبوب وأن هناك من يهتم له ويحبه ويضحى من أجله شعور في الذروة من المتعة والانتشاء، وكذا كانت أسرتي الكبيرة فوالدتي لم تبرح تقرأ عليَّ الأوراد وتتعاهدني بأنواع الأطعمة وتتصل بي في كل وقت وتدعو لي في كل سجدة حتى اغتمت لحالي، وكانت معي بقلبها الحنون في كل لحظة، وكذا والدي ـــ حفظه الله ـ الذي رافقني من لحظة دخول المستشفى وكان يزورني صباحاً ومساء، وكان لا يفوت فرصة من دون أن يسأل عني ويدعو لي.

ولن أنسى وقفة أخي وأختي وأصدقائي..

وبالتالي، فإني أذكر نفسي في المستقبل وأقول لمن ألهته الأشياء الصغيرة عن الأشياء المهمة، أقول لمن ألهته الدنيا عن الآخرة، لمن ألهته المادة عن الروح، لمن انشغل بالمال عن أسرته، لمن استهلك في عمله ونسي والديه ، لمن تعاظمت في عينيه الصغائر والتوافه، فلاحقها في كل طريق وراح يلملمها في كل اتجاه وغفل عن أساسيات الحياة وعما يعنى الكثير: استفد من تجربتي دون أن تمر بها، واعلم بأنه في آخر المطاف ،لن تتحسر على ألف أو ألفين، أو مشروع أو مشروعين، أو سفرة أو سفرتين، أو ساعة أو ساعتين في المكتب، ولكنك ستتحسر على التفريط في جنب الله، ستتحسر على والديك الذين ماتوا ولم تبرهما، ستتحسر على أطفالك الذين لم تعطهم حقهم، ستتحسر على زوجتك التى عاشت معك من دون معنى، وعلى صديق لك تخليت عنه، ستتحسر على فكرة جميلة لم تتأملها، ووردة بديعة لم تستنشقها، ورحلة ممتعة مع أسرتك أجلتها، وكتاب مهم لم تقرأه.

فضع نصب عينيك الأولويات وسر في الحياة وفقها وراجعها أولا بأول حتى لا تستهلكك الصغائر عن المعنى الحقيقي للحياة.

(6)

أولست من نسل الألى نسلوا العُلا
وكسوا دياجير الورى بمنائر
وتطلعوا صوب الشموس وأسرجوا
للفتح صهوة كل مهر ضامر

ومضوا إلى غاياتهم، ثم انثنوا
وعلى خدود النجم وشم حوافر
(عمر أبو ريشة)

ومما تعلمته من هذه التجربة أن أكثر ما يدفع عن الإنسان الهم والغم، ويطرح عنه الاكتئاب، ويعطيه دفعة معنوية كبيرة نحو مصارعة منغصات الحياة ومكابدة آلامها، أن يكون لديه طموحات لمشاريع مستقبلية وأهداف بعيدة المدى تصب كلها في غاية نبيلة قد انتدب نفسه لها ونذر حياته من أجلها، حتى أن بعض الدراسات العلمية قد أشارت إلى أن مما يسهم بشكل كبير في تخطى الكثير من الناس للحوادث والكوارث والمصائب أن لديهم أهدافا لا يزالون يسعون لتحقيقها، أو مهمات وواجبات لا بد لهم من إنجازها، أو شخص يحبونه ويحبهم يشاركونه حياتهم، أو قضية تهمهم أو رسالة يناضلون من أجلها، وقد تبين لي صدق هذا الكلام من خلال تجربتي هذه، حيث إن المشاريع الكثيرة التى كنت أحلم بها والأهداف بعيدة المدى التى كنت أرمي لها كانت تتقافز في ذهني كثيرا فتبعث فيَّ الأمل والهمة لمواصلة رحلة الحياة ومتابعة الإنجاز ومواصلة المسيرة، كنت أشعر أن في حياتي الكثير مما أريد تحقيقه ولما أصل إليه، وأنه قد بقي فيها أهداف كبرى أريد أن أسعى إليها.

وعلى الرغم من أن هذا لا يغير من قدر الإنسان وأجله، فلا يدفع عنه الأجل الذي قد يحول بينه وبين ما يريد من أمان وأهداف، ولكن أجل الإنسان مجهول له ولا ينبغى له أن يفكر فيه كثيراً، بل يعقد الآمال الكبار ويرسم الأهداف العظام، ويسعى إلى تحقيقها حتى آخر رمق من حياته فتأتيه منيته وهو يطارد أهدافه ويلاحق آماله.

(7)

يا من يعاتب مذبوحا على دمه
ونزف شريانه ما أسهل العتبا
من جرب الكي لا ينسى مواجعه
ومن رأى السم لا يشقى كمن شربا
(نزار قباني)

بحكم عملي كطبيب، فقد كان لهذه التجربة عندي أبعادا أكثر من أبعادها عند المريض العادي، ذلك أنني الآن عشت طرفي التجربة، عشتها سنوات عديدة طبيبا أباشر علاج المرضى ورعايتهم وعشتها الآن ثلاثة أشهر مريضا بحاجة إلى رعاية، ومن وحي هذه التجربة، استفدت كثيراً من الدروس والعبر في فن التعامل مع المريض ورعايته النفسية والعضوية.

ومما استفدته في الجانب الطبي أنني لم أكن أدرك درجة تعلق المريض بالطبيب بالشكل الذي شعرت به في تجربتي هذه، واكتشفت أن العلاقة بين المريض والطبيب لها أبعاد أخرى أعمق من مجرد أخذ تاريخ المرض وفحص المريض وتشخيص الداء وصرف الدواء، المريض متعلق بالطبيب من أوجه أخرى كثيرة، فالطبيب يوفر للمريض رمزا للاطمئنان والأمن، ومصدرا للمعلومات وإجابة الأسئلة التي تقفز في عقل المريض من غير تحكم فتؤرقه فلا يجد لها جواباً، كنت أحس في أثناء تنويمي في المستشفى أنني إنسان آخر بعد أن يمر علي الطبيب، فيكون لتلك الزيارة أثر نفسي كبير علي، يزيد من ثقتي، ويطمئن خاطري، ويثبتني على الصبر على المرض، هذه العلاقة للأسف الشديد تضمر أمام أعيننا يوميا لأسباب كثيرة منها:

- قلة تدريب الأطباء على الأبعاد النفسية العميقة لعلاقة الطبيب بالمريض، حيث يتدرب معظم الطلاب على أخذ قصة المرض وفحص المريض وتشخيص المرض ووصف الدواء، وقد يتدربون في الكليات الجيدة على إخبار المريض بالأخبار السيئة، وعلى التعامل مع نوعيات معينة من المرضى ولكن لا يتلقون تدريبا حقيقيا على طريقة التعامل مع المريض وكيفية التفاعل معه، وقراءة أفكاره، وتبديد مخاوفه، فما أحوجنا أن ندعّم كليات الطب لدينا بمثل هذه المنهجيات والتي هي منتشرة وموجودة في كليات الطب الغربية، وقد بدأنا بحمد الله في كلية الطب بجامعة الملك سعود بتنفيذ دورات مكثفة في فنون الاتصال بين الطبيب والمريض، ولكن مثل هذه المهارات لا بد أن تكون جزءا من المنهج التعليمي في الكلية، وجزءاً مما يقيم على أساسه الطلاب والأطباء المتدربون.

إن طريقة تعامل الطبيب مع المريض ليست فنا فقط ولكنها في الحقيقة علم وفن، علم كتب فيه الكثير وعملت عليه الدراسات، وأقيمت له المؤتمرات، علم قائم بذاته لابد لنا أن نعترف به ونتبناه، ولكنها بعد ذلك وقبله فن لابد أن نتمرن عليه تحت إشراف، ونتدرب عليه مع التقييم، قبل أن نخرج إلى عالم الواقع ونواجه أول مريض في الحياة العملية، ولا شك أن الخبرة في التعامل مع أنواع متعددة من المرضى بعد ذلك لها دور كبير في صقل تلك المعارف والفنون وتطويرها.

- تزايد أعداد المرضى في العيادات والمستشفيات بالنسبة إلى أعداد الأطباء، ففي معظم المستشفيات يعاين الطبيب في الفترة الواحدة

(من ساعتين إلى ثلاثة) حوالي عشرين إلى ثلاثين مريضا (مقابل ستة إلى عشرة مرضى في كندا مثلا)، فكيف يمكن للطبيب خلال هذه الفترة القصيرة أن يتحدث إلى المريض ويفحصه ويخبره بمرضه وطريقة علاجه ويكتب له الأدوية ويكتب في ملفه. وإذا نادينا بتخفيض عدد المرضى في العيادات طالت مدة انتظار المرضى للمواعيد حيث هي الآن بالوضع الحالي قد تصل في بعض المستشفيات إلى أكثر من ستة أشهر! وبالتالي، فإن الواقع الذي تمارس فيه العملية التطبيبية في بلادنا في الوقت الحاضر (على الأقل في القطاع الحكومي) غير مؤهل لأن يستقبل فكرة التواصل الصحيح والعميق بين الطبيب والمريض، حتى لو تدربنا عليه في الكلية واقتنعنا به نظريا.

- سوء استغلال بعض المرضى لهذه العلاقة، فحتى نكون منصفين مع الأطباء فإن بعض المرضى يكون مزعجاً فعلاً ويُسِيء استغلال علاقته بالطبيب إلى أقصى حد، حيث يتصل بك أحدهم يسأل عن طبيب أسنان مناسب لابنته، ويريد آخر أن تتوسط له في غرفة خاصة لأحد أفراد قبيلته، أو تقديم موعد لأحد معارفه، أو يتوقع منك أن لا تهتم إلا به وأن لا تتذكر إلا حالته، ولو استجاب الطبيب لكل هذه الطلبات لم يبق لديه وقت لأي مريض آخر، فضلاً عن أن يبقى لديه وقت لأن يتابع الجديد في تخصصه، ويعيش حياته الخاصة. كما أنه من غير المحبذ للطبيب أن يستهلك كل طاقته النفسية والفكرية في الاهتمام بمريض واحد مهما كانت حالته، حيث إن الاهتمام الزائد بالمريض، والتأثر النفسي الشديد لما

حصل له، وشرود الفكر في التفكير فيه وحمل همه، يؤثر بلا شك في الاهتمام بالمرضى الآخرين والعناية بهم، وبالتالي، فلا بد أن يوطن الطبيب نفسه على أن يوازن بين الاهتمام بالمرضى، والانتقال بالعلاقة معهم من علاقة روتينية مكتبية بلا روح إلى علاقة تفاعلية حقيقية، وبين أن يبذل حياته كلها للمرضى بحيث لا يبقى عنده وقت أو طاقة لعمل أي شيء آخر.

(8)

وعذلت أهل العشق حتى ذقته
فعجبت كيف يموت من لا يعشق
وعذرتهم وعرفت ذنبي أنني
عيرتهم فلقيت منه ما لقوا

(المتنبي)

ومما استفدته في الجانب الطبي أيضا أن لا يحقر الطبيب أعراض المريض مهما كانت بسيطة، وأن لا يقارنها بالأعراض التي قد تبدو أكثر شدة وقوة عند المرضى الآخرين، فكثيرا ما كنت أعجب من رجل ممتلئ صحة ونشاطا وتكاد حياته تتدمر بسبب بعض الغازات في بطنه أو انتفاخ بسيط أو بسبب بعض الحموضة المريئية أو غير ذلك من الأعراض البسيطة، فتجده يصورها وكأنها الطامة الكبرى ويشرح لك أنه لم يعد يستطيع أن يخرج إلى العمل، ولا أن يقابل الناس وهكذا.

كنت كثيرا ما أتعجب من ذلك. وعلى الرغم من أنني كنت أعالج المريض وأعطيه حقه من الاهتمام وما يحتاجه من العناية فإنني لم أكن

أتفهم كيف يمكن لأعراض بسيطة كهذه أن تفسد عليه حياته بهذا الشكل ولم أكن أعطي هذا الجانب النفسي ما يستحقه من العناية والاهتمام، وعلى الرغم من أن هذا التفاعل مع أعراضٍ كهذه مبالغ فيه، وقد يدل على استعداد نفسي معين فإن المريض عندما يصف لك هذه الأعراض ونتائجها فإنه يصف لك ما يشعر به حقا بغض النظر عن وجاهة الشكوى وخطورتها، إنه يضع ثقته فيك ويخبرك بما يشعر به، ولا بدّ لك في المقابل أن تتفهم ما يشعر به من غير تقييم له أو وضعه في قالب معين أنت تراه، وإنما تنظر إلى الأعراض من جهته وتشاركه معاناته، وتعطيها ما تستحق من الاهتمام والتقدير، وإذا رأيت أن لدى المريض مشكلة نفسية معينة ترشده إلى حلها وعلاجها عند المختصين. وكنت أشعر أحيانا في نظرات من حولي من الأطباء تهوينا لشأن الأعراض التي أشعر بها أو استغرابا من تفاعلي معها، وأنا هنا أقوم بما قام به المريض التي تحدثنا عنه قبل قليل ، لا أحاول أن أتجمل وأضع نفسي في صورة معينة ترضي الطبيب أو تحسن صورتي عنده وإنما أنا أحكي له ما أشعر به بالضبط غير عابئ بما قد ينتظره مني، أو ما يستنتجه من شكواي لأنني أتوقع منه أن يساعدني ويعينني، ولا أن يصنفني ويستهزئ بي.

(9)

أسيف الدولة استنصر بصبر

وكيف بمثل صبرك للجبال

وأنت تعلم الناس التعزي

وخوض الموت في الحرب السجال

(المتنبي)

ومما استفدته في الجانب الطبي أن مرض الطبيب يمثل مشكلة طبية خاصة لابد أن تعالج بحكمة وخصوصية مختلفة عن مرض غير الطبيب. وأذكر أنني في بداية المرض عندما رآني أحد الاستشاريين الكبار من أساتذتنا، أول ما قال لي: «من طبيبك؟» فقلت له: «لا أحتاج إلى طبيب»، فحذرني من ذلك أشد التحذير ونبهني على ضرورة أن يكون لدي طبيب، وأن أمارس أنا دور المريض والمريض فقط، وبالمقابل على الطبيب أن يتعامل مع مريضه الطبيب كما يتعامل مع أي مريض آخر، فيأخذ منه تاريخ المرض بدقة ويفحصه بعناية ويقرر له ما يحتاجه من فحوصات أو أدوية أو إجراءات بناء على العرف الطبي المتبع متناسيا أنه طبيب أو زميل، كما أن عليه أن يشرح له الإجراءات الطبية بشكل كامل حيث إن الطبيب المتخصص في أمراض الأطفال مثلاً، قد لا يعرف أو لا يذكر عملية التنظير وطريقتها ومضاعفاتها، وبالتالي فلا بد من شرحها له، وحتى إن كان المرض في صميم تخصص الطبيب المريض فإن تجربة العملية أو الدواء أو الفحص المعين كمريض مختلف تماما إذا كان الإنسان طبيباً.

ولكنْ ثمةَ أمورٌ لابد أن تراعى عند علاج الطبيب المريض، من أهمها أن مستوى القلق أو التوتر وانشغال الذهن الذي قد يعاني منه الطبيب المريض، قد يكون أكثر مما يعاني منه المريض غير الطبيب، حيث إن الطبيب المريض يعرف في أغلب الأحيان المضاعفات الممكنة والمحتملة من الأمراض والإجراءات التشخيصية، وقد رأى في حياته العملية كل أنواع المضاعفات والأمراض والمشكلات التى تكتنف الطب، وبالتالي فإنه يكون عُرضة للقلق والتوتر، ولا بد أن يراعي ذلك أثناء علاجه بينما قد يكون

المريض غير الطبيب في غفلة عن خطورة مرضه واحتماليات مضاعفاته فيكون مطمئنا، ومما ينبغي أن يراعى خصوصية الطبيب المريض وعدم نشر أسراره الطبية للزملاء الآخرين إلا بإذنه، فقد اعتاد الأطباء على عدم إفشاء أسرار المرضى غير الأطباء، وعدم إعطاء التفاصيل الطبية الخاصة بهم لأي أحد حفاظاً على سر المريض، أما عندما يتعلق الأمر بالطبيب المريض، فإن جميع أخباره الخاصة والعامة تكون مشاعا لأي زميل يسأل، وقد يسبب هذا الحرج لبعض الأطباء المرضى خاصة إذا كان المرض حساساً، أو له متعلقات مستقبلية تتعلق بمستقبله المهني.

(10)

كم مر بي فيك عيش لست أذكره

ومر بي فيك عيش لست أنساه

(حافظ إبراهيم)

آه، لقد كانت تجربة إنسانية عميقة عشتها، وأثرت في حياتي كثيراً، فتحت عيني على أمور كثيرة كنت غافلا عنها، واكسبتني تجارب جديدة لم تخطر على بالي، أرجو أن تسهم في أن أتعايش مع التجارب الإنسانية التى تنتظرني بشكل أفضل، وأن أكتسب ثروة نفسية تساعدني على تخطّي مصاعب الحياة، وأن أعود إلى نفسي وأتأمل حياتي، ما مضى منها وما سيأتي، وأتأكد أن أولوياتي فيها صحيحة».

وضع القلم.. أحس بشعور غريب، لم تكن إجازته المرضية قد انتهت بعد.. قام من مكتبه، أرتدى ملابسه، وضع المعطف الأبيض، ركب سيارته،

اتجـه إلى المستشفى، مـرَ على مرضاه، أحس بأنه أكـثر حساسية، وأعمق إدراكاً، وأشد تقديراً للنبضات..

نبضات المريض .. ونبضات الطبيب ..

وأنه؛ ولأول مرة، قد استمع بعمق لبَوْح النبضات ..

خاتمة

وبعدُ، فهذا هو بَوْح النبضات، التقطتها لك من دهاليز أجنحة المستشفيات، ومن داخل غرف العيادات، بطلها الطبيب الإنسان، والمريض الإنسان، وهم يتواصلون ويتفاعلون.

قصة من التواصل الناجح، وقصة من التواصل الضعيف، قصة من رحم معاناة المريض، وقصة من صميم معاناة الطبيب، قصة أساء فيها المريض فهم الطبيب، وقصة أساء فيها الطبيب فهم المريض، وقصة الطبيب وقد صار مريضاً، وبين هذه وتلك، تتوزع المسؤولية بنسب متفاوتة بين الطبيب والمريض.

هذه القصص، كما لاحظتم، أثارت أسئلة أكثر من أن قدمت حلولا، ونكأت جراحا أكثر من أنها داوت عللا، ولكنى أرجو أن تكون على الأقل قد أبرزت مشكلة، وأضاءت ظلمة، وطرحت على طاولة النقاش قضية.

العلاقة بين الطبيب والمريض علاقة إنسانية قبل كل شيء، يستحضر فيها كل طرف خلفيته المعرفية والتاريخية والنفسية والمهنية، ويفرض عليها كل طرف حاجاته الإنسانية ورغباته الشخصية، ولذلك فهي لا تخضع لقانون واحد ولا تتبسط في حل سريع. إنها علم وفن. علم يدرس في العديد من كليات الطب في العالم، تعقد له الندوات، وتجري عليه الدراسات، وفن يتميز فيه طبيب عن طبيب، ومريض عن مريض.

فالجانب العلمي ينبغى أن يعطى حقه من الإبراز والتمحيص، وأن يقدم إلى الطلاب والطالبات في كليات الطب وإلى الأطباء جميعا بشكل عملي مدروس، على جرعات متفاوتة وعلى مستويات متعددة من مسيرتهم، وهو فن لا يمكن تعلمه بشكل صحيح إلا بالممارسة والتعلم من الأخطاء.

ومما يزيد الموضوع تعقيداً، أن القضية يكتنفها الكثير من الحيثيات الشرعية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية. فما يكون مقبولا في مجتمع قد يعتبر مرفوضا في آخر، وما يراه شخص مناسبا وإنسانيا قد يراه آخر تعديا وتجنيا.

الرحلة التي طاف فيها المريض في عقل الطبيب أحسب أنها ستساعده على فهم طبيعة عمله، وطريقة تفكيره، وترتيب أولوياته، وما يكتنف حياته ومهنته من تحديات، وأحسب أن كثيراً من المرضى سيتعجب من حجم التحدي الذي يواجهه الأطباء بعد قراءة هذه القصص. ومغامرة الطبيب في عقل المريض أظن أنها ستقربه إليه، وتعرفه عليه، وتحسسه به، مما سينعكس على تواصله معه وتقربه إليه.

فحطّوا عنكم رحال الرحلة، وسلموا أنفسكم لشيء من الراحة، فإن العيادة القادمة بعد ربع ساعة.